عبد الحميد حمادي السلاوي

كلام أهل الجنة وتخاصم أهل النار

كلام أهل الجنة وتخاصم أهل النار

عبد الحميد حمادي السلاوي



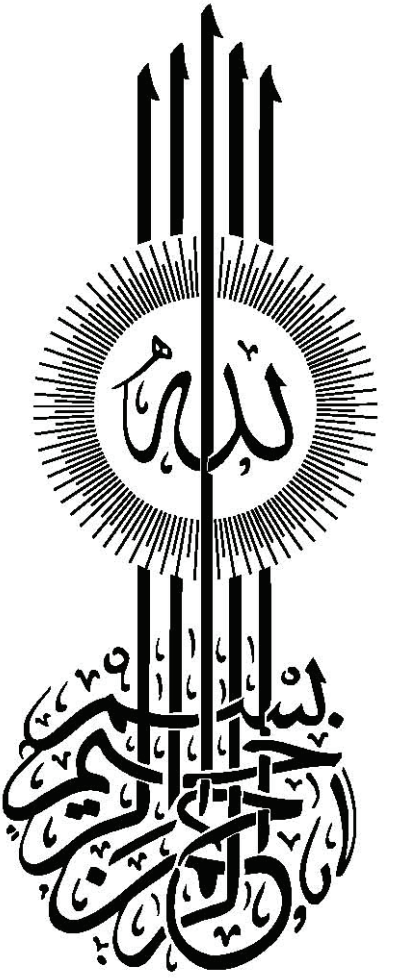
- دكتوراه في الشريعة.
- له ٤٠ كتاباً في مواضيع مختلفة.
- مقدم برامج دعوية واجتماعية وادارية في المحطات الفضائية.
- رئيس جمعية بشائر الخير.

كلام أهل الجنة

و

تخاصم أهل النار

عبدالحميد جاسم البلالي


بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَةُ

إنَّ الْحَمْدَ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَاّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أما بعد

فكما كان الإنسان يتكلم في الدنيا بكلام بعضه يرضي الله والآخر يغضب الله، فكان الكلام الأول سبباً في دخوله الجنة، و الكلام الآخر سبباً في دخوله النار كذلك في



الآخرة يكون كلام أهل النار عبارة عن تخاصم وجدال مخلوط بدموع ودماء وآلام، أما كلام أهل الجنة فما هو إلا تذكر لأيام الدنيا، ونعم الله التي كان يغدقها عليهم، ودعائهم له تضرعاً وخيفة، وثناء على الله بما أنعم عليهم في الجنة، ويكون من كلامهم محاسبة للمجرمين، ومناقشة لأسباب قذفهم في النار، ففي تلك الأيام يكونون هم سادة الموقف، وهم الذين يسألون المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾[1] وهم الذين يضحكون على المجرمين، بعد أن كانوا يسخرون منهم في الدنيا ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]

وما جعل أهل النار يَرِدُوها إلا الشهوات التي حفت بالنار حتى غطتها، فعميت بصائرهم عن رؤيتها، وخارت عزائمهم عن قيادة نفوسهم، فتساقطوا في النار.

---

(١) المدثر: ٤٢

(٢) المطففين: ٣٤-٣٦

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لما خلقَ اللهُ الجنةَ، قال لجبريلَ : اذهبْ فانظرْ إليها، فذهبَ، فنظرَ إليها، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فحفها بالمكاره، فقال : اذهب فانظر إليها، فذهبَ فنظرَ إليها، ثم جاء فقال : وعزتِك لقد خشيتُ أن لا يدخلَها أحدٌ، قال : ولما خلقَ اللهُ النارَ قال : لجبريلُ : اذهبْ فانظرْ إليها. فذهبَ ونظرَ إليها، ثم جاء فقال : وعزتِك لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلُها. فحفَّها بالشهواتِ فقال : اذهبْ فانظرْ إليها. فذهبَ فنظرَ إليها، فلما رجع قال : وعزتِك لقد خشيتُ أن لا يبقَى أحدٌ إلا دخلَها**»[١].



(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح وحسنه الأرناؤوط - جامع الأصول : (٨٠٦٨).

إذن هي تلك الشهوات الكثيرة المحفوفة بها النار، هي التي تمنع الكثير من بني آدم دخول الجنة، وهي كذلك التي تعميهم عن حقيقة النار وما فيها من عذاب، الأمر الذي يجعلهم ينغمسون في المعاصي والشهوات، حتى يفقدوا الإحساس بوجود ما بعد تلك الشهوات، ألا وهي النار.

وإذا كانت الشهوات في عهد الرسالة محدودة، فإنها في هذا العصر المادي طغت حتى أصبحت هي سمة المجتمع في كل مكان، وأصبح البعيد عنها هو ما يطلق عليه عبيد الشهوة (معقد، رجعي، متعصب، متزمت) إلى آخر هذه الأوصاف التي تدل على التخلف في مسايرة المجتمع المادي الذي نعيشه، لذلك جاء هذا الكتاب ليساهم مع من ساهم وما يزال يعمل على تذكير الناس باليوم الآخر، جاء هذا الكتاب لتكبير الصورة على جانب واحد من جوانب الجنة وهو كلام أهلها، وعلى جانب واحد من النار وهو تخاصم أهلها، كي تتضح لمن عمي عن رؤيتها، ولكي يبرز زيف هذه الشهوات التي حُفت بها، فزينتها لأصحابها،

ونسأل المولى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، صحيحاً على السنة، متسبباً في هداية الكثير وتبصيرهم بعاقبة عبادة الشهوات، وردهم لعبادة الله وحده لا شريك له، ومعيناً لأصحاب الحق على تحمل المكاره حتى يصلوا إلى دار المقامة بسلام.



الفصل الأول

كلام أهل الجنة

كلامهم للمجرمين عند قيام الساعة

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾[1]

فعندما تقوم القيامة، ويرى المجرمون ما لا عهد لهم برؤيته من أهوال، تتهاوى أمامهم كل الآلهة التي كانوا يعبدون من دون الله، وتتحطم في قلوبهم وأعينهم أصنام الشيوعية والمادية والإباحية والعلمانية والماسونية والوجودية والاشتراكية والصهيونية والقومية وطواغيت البشر، ويتضح أمامهم جلياً ما كان يخبرهم به الدعاة إلى الحق، عندما يكشف الله سبحانه وتعالى الغطاء عن أعينهم، ويدركون في

(١) الروم: ٥٥-٥٧

تلك اللحظات، أن استهزاءهم بأهل الحق بوسائلهم التي كانوا يملكون في الدنيا، من إعلام مرئي ومسموع ومكتوب، لم تنفعهم، ولم تقربهم إلا إلى طغاة البشر، والذين هم معهم في تلك اللحظات سواء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ويدركون أيضاً انه لا مجال للرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، ويكونوا من المتقين، فيفكرون في كذبة يكذبونها ليتخلصوا من هذا المأزق الذي يواجههم، وعذر لعله يكون مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى، وحتى يكون العذر مقبولاً فلا بد من وضع مقدمة، ولا يرون في ذلك



الوقت أنسب ولا أنفع من القسم بالذي كانوا يكفرون به ويحاربون دعاته.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾[١] وكأنهم يقصدون أنه لم يتسع الوقت في ساعة واحدة لأن يكونوا من المؤمنين، يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: «وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا، ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾[٢] أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون على الحقائق، و يأتفكون الكذب ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاء به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه»[٣].

---

(١) الروم: ٥٥

(٢) الروم: ٥٥

(٣) تفسير كلام المنان: ٦/١٤٣

ثم تنبعث أصوات شهود الإثبات، والتي ظلمت في الدنيا على أيدي أولئك المجرمين، تلك الأصوات الطاهرة النقية، التي كبتت والجمت أفواه أصحابها بالإيقاف تارة، والإبعاد تارة أخرى، وبالسجن والإعدام أحياناً كثيرة تلك الأصوات التي دفنت تحت أنقاض الضلال والجاهلية والإرهاب وهي حية، تنادي من تحت تلك الأنقاض: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ (١) تنطلق تلك الأصوات من عقالها، بعد أن كانت محبوسة، لتؤدي مهمتها كشاهدة على كذب أولئك المجرمين قال



(١) يس: ٢٦-٢٧

تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾[١]

فتقبل عند الجليل هذه الشهادة الصادقة من تلك الأصوات الصادقة، فتخرس أصوات المجرمين ولا تقبل معذرتهم. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾[٢]



(١) الروم: ٥٦

(٢) الروم: ٥٧

كلامهم عند الحساب

عندما يأمر الله سبحانه وتعالى إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور النفخة الثانية، تدب الحياة في الأجساد الميتة تحت الثرى ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[١] يقومون من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[٢] عراة الأجسام كما خلقهم الله سبحانه وتعالى أول مرة، غرلاً (أي : غير مختونين)، وإذا بأفواج من البشر والجن والملائكة، ملايين الملايين، جميعهم قد حشر في أرض المحشر، فمنهم من حشر أعمى، ومنهم من حشر أبكم، ومنهم من حشر أصم، ومنهم من يحشره الله ويمشيه



(١) الزمر: ٦٨

(٢) القمر: ٧

على وجهه، وآخرون محشورون على دواب، وبعضهم من ترى النور بين أيديهم وبأيمانهم جزاءً لهم على ما كانوا يمشونه في الظلام متوجهون إلى بيوت الله، ها قد تحقق قول رسولهم ﷺ فيهم: «**بشرِّ المشائينَ في الظلمِ إلى المساجدِ، بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ**»[١] فترى النور يحيط بهم من كل مكان.

❐ نزول الشمس على الرؤوس:

وبينما الناس محشورون، يأمر الله الشمس بالنزول على مقدار ميل من الرؤوس، فتغلي الأرض، ويعرق الناس، ويبلغ عمق العرق في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم [٢]) في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا، ويتضايق الناس ويضجون ويضجرون، وبينما

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥٦١) وصححه الألباني (ص ج ص ٢٨٢٠).

(٢) وذلك من حديث أخرجه البخاري ولفظه: «**يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم**»، رواه البخاري (٦٥٣٢).

الناس على هذا الحال، ينبعث صوت حبيب معروف لدى أصحاب الجنة، يتردد في أرجاء أرض المحشر، «**أَيْنَ المُتَحابُّونَ بجَلالِي؟ اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي، يَومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلِّي**»[١] أولئك الذين تحابوا في الله، وليس لأمر دنيوي، يساقون إلى ظل العرش ليحميهم من حرارة ذلك اليوم، ويساق معهم تحت ظل العرش ستة أصناف من الناس.

❐ المستظلون بظل العرش :

«الإِمَامُ العَادِلُ» : الذي كان يحكم بما أنزل الله، ولم يستعن بقانون موضوع، وما كان يظلم أحداً.



(١) رواه مسلم (٢٥٦٦) وأوله: (إن لله تعالى يوم القيامة . . .).

«وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ» : ولم ينشأ على الأغاني والمخدرات، والليالي الماجنة، ومحاكاة النساء، وتقليد عادات الغرب السيئة، إنما نشأ صالحاً في عبادة الله وحبه، لا في حب أي منهج آخر .

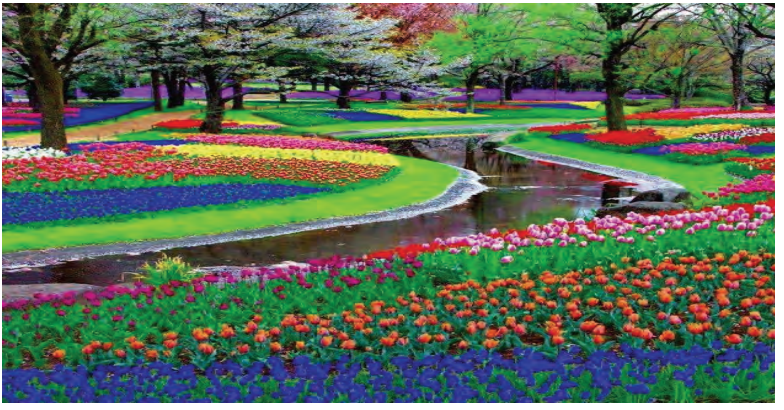
«ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ»: فجسده هو الذي يخرج من المسجد ولكن قلبه يعلق هناك، في بيت من بيوت الله، فيظل الجسد دائماً في اشتياق إلى حيث علق قلبه، ولم يكن من الذين يزورون المساجد في الجمع فقط، وفي الأعياد والمناسبات، حتى غدا عندهم المسجد كتحفة أثرية، أو كمتحف يزورونه من وقت لآخر ليتفقدوا الآثار،



إنما عمروا المساجد بغدوهم ورواحهم، وعشقوا المكوث فيه والاستظلال بظله، فأظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

«وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ»: فلم تكن التي دعته امرأة كباقي النساء، إنما كانت ذات منصب وجاه، تستطيع من خلال جاهها ومنصبها تغطية جريمة الزنا، وتمويله إن كان من المحتاجين.

وإذا كان المنصب هو أحد الأشياء التي تدعو الرجل ليقبل على المرأة، فإن الجمال أكثر الأشياء التي تجعل الرجال أكثر ميولاً وحباً للمرأة، فإذا اجتمع المنصب



والجمال بدعوة من المرأة ذاتها لاقتراف جريمة الزنا، وقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[١]، فإنه يكون من أشد الابتلاءات على الرجل، ولا يثبت أمام هذه الفتنة إلا رجال قد ملئت قلوبهم بحب الله، فلا مكان فيه لمحبوب غيره، وكان الخوف منه سبحانه وتعالى والشعور بمراقبته الدائمة قد سيطر عليهم حتى أنساهم لذائذ الدنيا المحرقة، فقال أحدهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾[٢]

«وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما أنفقت يَمِينُهُ»: فما كان يرائي الناس بنفقته، إنما كان يريد وجه الله وحده.

«ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»: فكان خالياً وحده، عندما ذكر الله، وذكر عقابه، وعظمته ورحمته، وتذكر بجانب ذلك تقصيره تجاهه، ففاضت عيناه. إنه كان عندما يذكر الله، لا يذكره بلسانه فقط، إنما كان يستشعر ما

(١) يوسف ٢٣
(٢)الأنفال: ٤٨

يقول بقلبه، ويتفكر بما يقول، حتى استولت على مشاعره عظمة الله، فلم يتمالك نفسه أن انسكبت الدموع من مقلتيه، فاستحق أن يظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

❑ بداية الحساب :

ثم يبدأ الحساب بين الخلائق، فمنهم شقي ومنهم سعيد، ويحاسب أيضاً المؤمنين ولكن حساباً يسيراً، فقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[1] وهذا الحساب هو ليس حساب تدقيق واستقصاء كما يفعل الله سبحانه وتعالى مع أهل النار، إنما



(١) الانشقاق: ٧-٨

هو كما أخبر الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ عُذِّبَ**»(١) فقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا هَلَكَ**» فقلت: يا رسول الله، أليس قد: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ (٢): فقال رسول الله ﷺ «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ عُذِّبَ**»(٣)

قال القرطبي: معنى قوله «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ**»: «إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة»(٤).

أما المناقشة فمعناها: «الاستقصاء في المحاسبة،

---

(١) البخاري: الفتح: (٦٥٣٧).
(٢) الانشقاق: ٧-٨
(٣) البخاري: الفتح: (٦٥٣٧).
(٤) فتح الباري: ١١ / ٤٠٢

والمطالبة بالجليل والحقير، وترك المسامحة» .[١]

ويوضح ذلك النوع من الحساب لأصحاب الجنة ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من قول الرسول ﷺ: « **إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه[٢] ويستره، فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال : سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطي كتاب حسناته**»، وأما الكفار والمنافقون :

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]

بعد الإخبار بالنتيجة :

وما أن تلامس كلمات الرحمن أذن ذلك المؤمن وهو يقول له : «**فإنِّي قد سَترتُهَا عليكَ في الدُّنيا، وأنا أَغفِرُهَا لكَ**

---

(١) المرجع السابق.

(٢) كنفه أي : ستره.

(٣) هود: ١٨

اليومَ»[١] حتى تدب فيه الحياة والأمل من جديد، بعد أن ظن أنه هالك لا محالة عندما قرره بتقصيره وذنوبه، فلا يتمالك نفسه من شدة الفرح أن يصيح بين الجموع المحتشدة، المنتظرة لكتبها ولنتائجها، فيشق صوته الشجي ذلك الصمت، وهو يناديهم ويدعوهم لرؤية كتابه، ونتائج أعماله التي كان يعملها في الدنيا لله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾[٢] فهو لم يكن يصدق أنه سينجو من العذاب، بل كان يتوقع المناقشة.



(١) أخرجه البخاري: الفتح رقم (٢٤٤١)
(٢) الحاقة: ١٩-٢٠

يقول ابن كثير : (يخبر الله تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾[١] أي: خذوا اقرؤوا كتابيه، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات).[٢]

- لأنه كان يعلم أنه كان موحداً لله، غير مشرك به، مقراً له بالحكم، وكافراً بكل دستور سوى دستوره.
- وكان يعلم أنه كان مواليا لله تعالى ومن والاه، حرباً على أعدائه.
- وكان يعلم أنه ما كان مرابياً ولا زانيا ولا شارباً للخمر، وما كان ظالماً، ولا شاهداً للزور ولا مقراً للطغاة طغيانهم، ولا محباً لأهل المعاصي والهوى بل كان محباً لأهل الطاعات والدعوة.
- وكان يعلم أنه ذو لسان نظيف، قد طهره من الغيبة والنميمة والكذب والسب والشتيمة، وكان ذو قلب قد

(١) الحاقة: ١٩

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٤١٥

طهره من الريبة والنفاق والحسد والحقد، لذلك كله كان يدعوهم لرؤية كتابه، وهو يصيح فيهم وفي كل من يلقاه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ (١)

لأنها هي النتيجة المشرقة التي يفخر بها الإنسان، لأنها نتيجة تحقيق الهدف الذي خلق من أجله الإنسان في الدنيا، وهو(عبادة الله)، وليست نتيجة الصراع والتنافس على لذات الدنيا الفانية بفنائها، ليست نتيجة الربح المالي، والمنصب والجاه والكرسي. بل هي نتائج الآخرة قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (٢)



(١) الحاقة: ١٩

(٢) المطففين: ٢٦

كلامهم عند الغمس في الجنة

❐ أنعم أهل الدنيا :

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيا مِن أهْلِ النَّارِ يَومَ القِيامَةِ، فيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يا ابْنَ آدَمَ، هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا واللَّهِ يا رَبِّ، ويُؤْتَى بأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيا مِن أهْلِ الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابْنَ آدَمَ، هلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا واللَّهِ يا رَبِّ، ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»(١)

«أنعم» على وزن أفعل، أي إنه أكثر أهل الدنيا نعيماً على الإطلاق من أهل النار، فله كل ما يندرج تحت النعيم الدنيوي، من أموال وقصور وخدم وأشكال وألوان من الطعام والثياب والجواهر والجواري بالإضافة إلى المنصب

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) كتاب المنافقين.

والجاه. ولكنه عندما يغمس في النار غمسة، فتلامس جسده المترف نار جهنم التي تعادل نار الدنيا بتسع وستين درجة، فيفتح عينيه ليرى ما كان يعمي بصره عنه من الأغلال والسلاسل والأفاعي والزقوم والماء الحميم الذي يُصبُ من فوق رؤوس أصحاب النار، ليصهر به ما في أجوافهم من الأمعاء، وليرى أن أقل الناس عذاباً من ينتعل نعلين يغلي دماغه منهما، ويرى المقامع والسجون، وليسمع شهيق النار وزفيرها وهي تأكل بعضها بعضاً وتتلمظ حرقة واشتياقاً للصيد الجديد، فيتبخر ذلك النعيم الذي كان يعيش فيه، ولا يبقى في مخيلته ذرة منه، فيقسم بالله أنه ما رأى خيراً قط، وما مر به نعيم قط.



يقول ابن علان الصديقي : «وكأن ذلك منه لغلبة العذاب عليه، حتى يذهل عما مضى له في الدنيا من النعيم، فيقول ذلك، وإلا فالآخرة لا يقع فيها الكذب من أحد، ويحتمل أنهم عدُّوا جميع ما ذاقوه من النعيم في جنب ما أصابهم من أقل العذاب كالعدم، فصيروه في حكم المعدوم، فقالوا ذلك»[١].

❐ أشد الناس بؤساً :

ويؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الجنة، فيغمس في الجنة غمسة لتتفتح عيناه على تراب من الزعفران، وطين من المسك، وحصباء من اللآليء والياقوت، وقباب من اللؤلؤ، وقصور مبنية طوبة من ذهب وطوبة من فضة، ويرى طيور الجنة كأمثال البخت تأكل من ورق شجر الجنة، ويرى أنهار الماء والعسل واللبن، ويرى حوريات الجنة التي لو أطلعت إحداهن إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً، و لأضاءت ما بينهما، ولتاجها على رأسها خير من الدنيا وما فيها.

(١) دليل الفالحين : ٢/٣٩٣

يرى ذلك كله، فيقسم أنه ما رأى بؤساً قط، وما مر به شدة قط.

وهو لا يكذب وليس من شيمة أهل الجنة الكذب، ولكن الذي قاساه من الفقر والجوع، والتشرد، وظلم الطغاة، وسجونهم وسياطهم، ودجل إعلامهم، وما لاقاه من استهزاء أهل الباطل بما يعتقد وبما يطبق من أمور السنة، لا يساوي ذلك شيئاً أمام ما رأى من نعيم الجنة، فنسي كل ذلك البؤس، ولم يستقر في مخيلته إلا نعيم الجنة، فقال: «**لا واللَّهِ يا رَبِّ، ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»



وبعد أن يكرم هذا الإكرام من قبل المولى سبحانه وتعالى، ويبدل بلاء الدنيا إلى عافية ونعيم لم تره عيناه من قبل ولم تسمعه أذناه، ولم يخطر على باله، حينها يتمني أهل نعيم الدنيا أنهم كانوا من أهل البلاء ليجزوا هذا الجزاء العظيم، و ذلك ما أخبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «**يودُّ أهْلُ العافِيَةِ يومَ القيامَةِ حينَ يُعْطَى أهلُ البلاءِ الثوابَ، لو أنَّ جلُودَهم كانتْ قُرِضَتْ في الدنيا بالمقارِيضِ**»[(١)]، ولكن ولات حين مندم، وقد قامت القيامة، وأعطيت الفرصة في الدنيا، ولم يستغلها أهل الأهواء، فلا رجوع إلى الدنيا، ولا فرصة لتوبة جديدة، فقد أغلق باب التوبة، ولم يبق إلا التقريع والتأنيب يسمعونه من ربهم سبحانه وتعالى وهو يقول: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[(٢)] ويتركهم هكذا يتلاومون فيما بينهم، ليزدادوا عذاباً إلى عذابهم.

---

(١) أخرجه الترمذي، وحسنه الألباني (ص. ج. ص ٨٠٢٩).

(٢) فاطر: ٣٧

كلامهم قبل كشف الساق (١)

عندما يؤذن ذلك المؤذن في أرض المحشر«**لتتبَعْ كلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ**»، **فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه وتعالى من الأصنام والأنصاب والمشركون بالله الذين كانوا يعبدون عزيراً والمسيح، إلا يتساقطون في النار : «حتَّى إذَا لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِن بَرٍّ أوْ فَاجِرٍ، أتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ في أدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتي رَأَوْهُ فِيهَا، قال: فمَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كَانَتْ تَعْبُدُ، قالوا: يا ربَّنا! فَارَقْنَا النَّاسَ في الدُّنْيَا أفْقَرِ ما كُنَّا إليهِم، ولَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فيَقولُ: أنَا رَبُّكُمْ، فيَقولونَ: نعوذُ باللهِ منك، لا نُشرِكُ باللهِ شيئًا - مرَّتَيْن أو**



(١) وهي ساق الرب سبحانه وتعالى، ليست كساق المخلوق، إنما ساق تليق بجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾الشورى: ١١

ثلاثًا - حتَّى إنَّ بعضَهم ليكادُ أن ينقلِبَ فيقولُ : هل بينكم وبينه آيةٌ فتعرِفونه بها؟ فيقولون : نعم، فيكشِفُ عن ساقٍ. فلا يبقَى من كان يسجُدُ للهِ من تلقاءِ نفسِه إلاَّ أذِن اللهُ له بالسُّجودِ، ولا يبقَى من كان يسجُدُ اتِّقاءَ ورياءً إلاَّ جعل اللهُ ظهرَه طبقةً واحدةً، كلَّما أراد أن يسجُدَ خرَّ على قفاه. ثمَّ يرفعون رؤوسَهم وقد تحوَّل في صورتِه الَّتي رأَوْه فيها أوَّلَ مرَّةٍ، فقال : أنا ربُّكم، فيقولون، أنت ربُّنا ثمَّ يُضرَبُ الجِسرُ على جهنَّمَ، وتحِلُّ الشَّفاعةُ، ويقولون : اللَّهمَّ سلِّمْ سلِّمْ»[1]

ومعنى قولهم: «**فارقنا النَّاسُ في الدُّنيا أفقرَ ما كنَّا إليهم**» «التضرع إلى الله تعالى في كشف هذه الشدة عنهم، وأنهم لزموا طاعته سبحانه وتعالى، وفارقوا في الدنيا الناس الذين زاغوا عن طاعته سبحانه من قراباتهم وغيرهم ممن كانوا يحتاجون في معايشهم ومصالح دنياهم إلى معاشرتهم) [2]، هكذا هي المفاضلة بين أهل الحق وأهل الباطل التي نشأت

(١) من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم (١٨٣) كتاب الايمان.
(٢) هامش صحيح مسلم تعليق محمد فؤاد عبدالباقي ١/١٦٨

من القاعدة الربانية التي أطلقها لهم عندما كانوا في الدنيا ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (١)

يقول سيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان. إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان. والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان. فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد. ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر. وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن. وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير(٢). وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم

(١) المجادلة: ٢٢

(٢) لعله عنى أبو عزيز، واختلف بين اسلامه بعد بدر أو قتله في بدر مشركاً.

وعشيرتهم. متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة. وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله »[١]



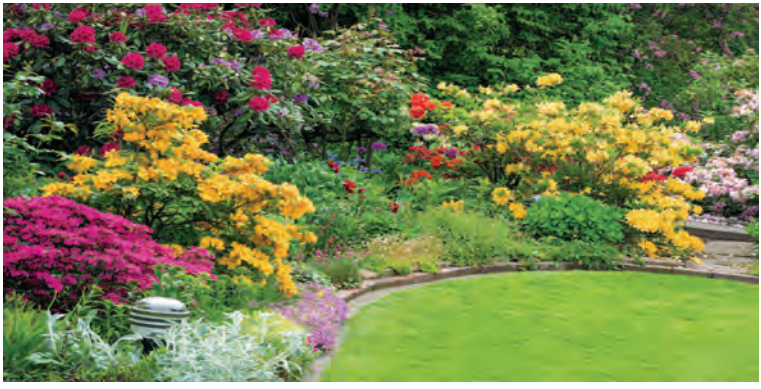
(١) في ظلال القرآن : ٦/٣٥١٥ الشروق.

كلامهم عندما تزلف الجنة

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قول الرسول ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ المُؤْمِنُونَ حتَّى تُزْلَفَ لهمُ الجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فيقولونَ: يا أبانا، اسْتَفْتِحْ لنا الجَنَّةَ، فيَقولُ: وهلْ أخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إلاَّ خَطِيئَةُ أبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بصاحِبِ ذلكَ، اذْهَبُوا إلى ابْنِي إبْراهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، قالَ: فيَقولُ إبْراهِيمُ: لَسْتُ بصاحِبِ ذلكَ، إنَّما كُنْتُ خَلِيلاً مِن وراءَ وراءَ، اعْمِدُوا إلى مُوسَى ﷺ الذي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فيَقولُ: لَسْتُ بصاحِبِ ذلكَ، اذْهَبُوا إلى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ ورُوحِهِ، فيَقولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بصاحِبِ ذلكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فيُؤْذَنُ له، وتُرْسَلُ الأمانَةُ والرَّحِمُ، فَتَقُومانِ جَنَبَتَيِ الصِّراطِ يَمِينًا وشِمالاً، فَيَمُرُّ أوَّلُكُمْ كالْبَرْقِ قالَ: قُلتُ: بأَبِي أنْتَ وأُمِّي أيُّ شيءٍ كَمَرِّ البَرْقِ؟ قالَ: «ألَمْ تَرَوْا إلى البَرْقِ كيفَ يَمُرُّ ويَرْجِعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وشَدِّ الرِّجالِ، تَجْرِي بهِمْ أعْمالُهُمْ ونَبِيُّكُمْ قائِمٌ علَى الصِّراطِ يقولُ: رَبِّ سَلِّمْ

سَلِّمْ، حتَّى تَعْجِزَ أعْمالُ العِبادِ، حتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفًا، قالَ: وفي حافَتَيِ الصِّراطِ كَلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بأَخْذِ مَنِ اُمِرَتْ به، فَمَخْدُوشٌ ناجٍ، ومَكْدُوسٌ في النَّارِ.» (١)

هكذا تتحرك الجنة وتتقرب لأصحابها الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في الدنيا ثمناً لشرائها من عند الله سبحانه وتعالى، قبل جوازهم للصراط اشتياقاً لهم، فكما أن النار تخرج الزفرات اشتياقاً لأهلها، فكذلك الجنة، فهي التي تأتي لهم ولا تريد منهم عناء المجيء فلقد عانوا كثيراً في



(١)أخرجه مسلم رقم (١٩٥) كتاب الايمان.

الدنيا وصبروا على طاعة الله، وعلى أصناف الفتن، وما كانوا يرددون عند إصابتهم بكل فتنة سوى قولهم: « قَدَّرَ اللهِ وَما شَاءَ فَعَلَ»، وقولهم: «**الحمدُ للَّهِ علَى كلِّ حالٍ**»، وقولهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[1] لا يضجرون، ولا يفترون، ولا يحيدون عن طريق الحق قيد أنملة، ولا يبتعدون عن الجماعة الصالحة، ولا يعترضون على القدر، إنما يستسلمون لله استسلاماً كاملاً، ويرضون بكل ما يقدر، ويستشعرون أنهم راجعون إليه، فيرددون معاً ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[2] قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤﴾[3] يقول صاحب الظلال: «والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة، فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها بل هي التي

(١) آل عمران: ١٧٣
(٢) البقرة: ١٥٦
(٣) ق ٣١-٣٥

تجيئ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ! فنعيم الرضى يتلقاهم في الجنة : قال تعالى ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[1]. فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوَّابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون»[2]

فمنظر الجنة وما تحوي، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر، وهي تتحرك تجاه المؤمنين، وهم يرونها تقترب منهم، يثير اشتياقهم لدخولها، مما يجعلهم يذهبون إلى الرسل واحداً تلو الآخر، ليستفتحوها لهم، فيعتذر الجميع إلا خاتم الأنبياء محمداً ﷺ، فيؤذن له.



(١) ق ٣٢- ٣٣

(٢) الظلال : ٦/٣٣٦٥

كلامهم بعد جواز الصراط

يقول الرسول ﷺ: «ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ.[١] وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ[٢] فِيهِ خَطَاطِيفُ،[٣] وَكَلَالِيبُ[٤] وَحَسَكٌ. تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ

---

(١) تحل الشفاعة: أي تقع ويؤذن فيها.

(٢) والدحض والمزلة بمعنى واحد، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر.

(٣) الخطاطيف: جمع خطاف، بمعنى الكلاليب، ولكنها تخطف الناس وهم على الصراط على قدر أعمالهم.

(٤) الكلاليب: جمع كلوب، وهو حديدة معطوفة الرأس.

فِي النَّارِ – وفي رواية : فما أنتم بأشَدَّ مُناشَدةً في الحَقِّ قد تَبَيَّنَ لَكم من المُؤمِنِ يَومَئِذٍ للجَبَّارِ، إذا رَأوا أنَّهم قد نَجَوا في إخوانِهم فيَقُولُونَ : رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ : أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا



كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا»[1]

❑ تذكرهم لمخالفيهم :

هكذا إذن هم الدعاة المؤمنون، لم ينسوا حتى من خالفوهم، لأنهم ما كانوا يبغضون العصاة لذواتهم، فما يوجد في قلوبهم متسع لكراهية أحد، ولكنهم كانوا يبغضون المعاصي التي يقترفونها، ها هم أمام الخالق سبحانه وتعالى يشفعون في أولئك العصاة، بما أعطاهم الله من مقام كريم، ومنزلة عالية، وجعل أولئك الذين كانوا في الدنيا أصحاب المناصب والجاه والحسب والنسب جعلهم بمنزلة دانية لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء.

ها هم المؤمنون يلحون في الطلب لله سبحانه وتعالى أن

(١) أخرجه البخاري ٣٥٨-٣٦٠/ ١٣، كتاب التوحيد و أخرجه مسلم رقم١٨٣، الإيمان.

يغفر لهم ويعفو عنهم، ليدخلهم معهم الجنة، فما من الناس أحد أشد مناشدة لله في استيفاء الحق منهم يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار .

حتى إنهم يتذكرون للعصاة الذين يحترقون في النار أعمالاً صالحة، أي عمل، لكي ينجوا به، فينادون الله سبحانه وتعالى بكل شفقة ورحمة على أولئك العصاة الذين طالما خالفوهم واستهزؤوا بهم، وأصروا على معاصيهم، واستكبروا استكباراً، فنراهم ينادون الجليل عندما تذكروا لهم بعض الأعمال الصالحة التي رأوهم عليها عندما كانوا



في الدنيا «ربَّنا كانوا يَصومونَ معنا، ويُصلُّونَ ويَحجُّونَ» فيكرمهم الله بالشفاعة، وبالمنزلة العالية، بين ملايين البشر والجن الذين أركسهم الله في النار جزاءً بما اقترفت أيديهم من أعمال يبغضها الله، يقول لهم: «أَخْرِجوا مَن عرَفْتُم» هكذا يستمر طلبهم مرة بعد مرة، حتى لا يذروا فيها من في قلبه شيء من الخير البتة.

ولو فقه الطغاة من الولاة والعصاة من الشعوب ما للدعاة المؤمنين من المنزلة العالية يوم القيامة، وما سيقومون به من أمر الشفاعة فيهم، والإلحاح على الرب جل علاه لإنقاذهم من النار، لكان هذا كافياً لردعهم عن مضايقتهم والاستهزاء بهم ومعاندتهم، ورد نصائحهم، ولَاَجَلُّوهم ورفعوا من شأنهم، رداً للجميل الذي يسدونه لهم في الدنيا، من تعليم العلم والنصيحة، والشفقة عليهم من الوقوع في النار، ورداً للجميل الذي سوف يسدونه لهم في الآخرة، من الشفاعة فيهم واستخراجهم من النار.

كلامهم مع المنافقين في طريقهم إلى الجنة

وعندما يرى المنافقون مصيرهم بأعينهم، ويرون أولئك الذين كانوا يستهزؤون بهم، ويصفونهم تارة بالرجعية، وتارة بالتطرف والإرهاب، وتارة بالتزمت والتعصب، يرونهم وقد حفتهم الأنوار وسعت من بين أيديهم وبأيمانهم، وهم في ظلام دامس لا يكادون يرون مواضع أقدامهم فينادون المؤمنين، وقد أخذ منهم التعب والإرهاق كل مأخذ قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ (١)



(١) الحديد: ١٣-١٤ (سيأتي شرحها مفصلاً في تخاصم هل النار.)

كلامهم بعد نزول المنازل

❐ عندما يساقون إلى الجنة :

وعندما ينتهون من الشفاعة للذين كانوا معهم في الدنيا، يساقون معاً إلى الجنة قال تعالى ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[1] فكما كانوا أخوة في الله في الدنيا، يجتمعون معاً لله، كذلك يجمعهم الله ولا يفرقهم يوم القيامة.

ويوضح الإمام ابن القيم ما بين أهل الجنة وأهل النار من فروق عندما يساق كل فريق منهم إلى مصيره الأخير، فيقول : «وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم، كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً،

(١) الزمر: ٧٣

ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً، يلعن بعضهم بعضاً، و يتأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً». [١]

❑ أول الناس دخولاً :

وبينما هم يمشون زمراً زمراً، والنور يداعب أجسامهم، فإذا بزمرة قد تقدمها الرسول ﷺ وهم سبعون الفاً، يتقدمون الجموع، وجوههم مضيئة كالبدر، أولئك الذين قال فيهم الرسول ﷺ : «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتي زُمْرَةٌ، هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إضاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ**»[٢] وإذا بزمرة يلونهم



(١) حادي الأرواح، ص ٣٩.ط دار الكتب العلمية.

(٢) متفق عليه «اللؤلؤ والمرجان» ١٢٩

وجوههم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة، وإذا برسول الله ﷺ يتقدم الجميع نحو الباب، فيستفتح ليفتح له، ويكون أول الداخلين، فهو القائل: «**آتي بابَ الجَنَّةِ يومَ القِيامَةِ، فأسْتفْتِحُ، فيَقولُ الخازِنُ: مَن أنْتَ؟ فأقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيَقولُ: بكَ أُمِرْتُ لا أفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ.**»(١)

❐ الازدحام على الأبواب:

فيدخل أحب الناس إلى الله، محمد ﷺ، ويقبل السابقون من السبعين ألفا على أبواب الجنة، التي ما بين المصراعين من مصاريعها كما بين مكة والشام، ومع ذلك يكتظ المؤمنون على هذه الأبواب، فلقد أخبرنا أبو القاسم ﷺ بقوله: «**أَنْتُمْ موفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُهَا، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عزوجل، وَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَإِنَّهُ لَكَظِيظٌ**»(٢)، و تزدحم الأمم عند أبواب الجنة، وتكون أمة محمد ﷺ نصف أهل

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩٧ كتاب الإيمان.

(٢) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات «مجمع الزوائد»: ٣٩٧/ ١٠

الجنة، فقد روى البخاري عن عمر بن ميمون عن عبد الله قال: كُنَّا مع النَّبيِّ في قُبَّةٍ، فَقالَ:

«أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: «والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، إنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شطر أَهْلِ الجَنَّةِ»[1]

ويسبق الفقراء الأغنياء، وترتفع منازلهم، وتنخفض منازل الذين عمروا الدنيا وخربوا الآخرة، ورفعهم الناس في الدنيا، فخفضهم الله في الآخرة، فهكذا هي الآخرة، التي تتبدل فيها موازين الأرض ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾[2] تخفض منازل أقوام قد ارتفعت منازلهم في الدنيا، وترفع منازل أقوام قد انخفضت منازلهم في الدنيا.

(١) أخرجه البخاري: الفتح ٦٥٢٨ كتاب الرقاق وله تكمله.

(٢) الواقعة: ١-٣

❑ ما يحدث لهم عند الدخول :

ثم «**يدخُلُ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بيضًا كأنهم مكحلون، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثينَ**»[١]، وتتوافد الجموع إلى ما وعدهم ربهم، وترتفع أصوات أبواب الجنة من كل مكان، فأهل الصلاة يدعون من باب الصلاة، وأهل الجهاد يدعون من باب الجهاد، وأهل الصدقات يدعون من باب الصدقة، وأهل الصيام يدعون من باب الريان، حتى إن بعض أهل الجنة يدعى من جميع هذه الأبواب تشريفاً وتكريماً له.[٢]



(١) أخرجه أحمد، وصححه الألباني ص-ج -ص (٧٩٢٨).

(٢) جاء ذكر ذلك فيما أخرجه البخاري في الفتح ٣٦٦٦ «كتاب فضائل الصحابة»، ومنهج الصديق.

وما إن يدخلوها حتى يروا بناءها وقصورها«**لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، مِلَاطُهَا مِسْكٌ أَذْخَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ**»(١)، ويرون ما أخبر به الرسول ﷺ عندما قال: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَمَرَاغًا مِنْ مِسْكٍ، مِثْلُ مَرَاغِ**(٢) **دَوَابِّكُمْ فِي الدُّنْيَا**» (٣)

❑ ارتفاع الدرجات :

ثم يقال للداخلين من أصحاب القرآن، كما أخبر النبي ﷺ : «**وَيُقَالُ لصاحِبِ القرآنِ اقرأ وارتَقِ ورتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدُّنيا فإنَّ منزلتَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها**»(٤) وصاحب القرآن :«أي حافظه عن ظهر قلب، أو حافظ بعضه الملازم

---

(١) قال الهيثمي في المجمع ٣٩٧/ ١٠ رواه الطبراني بإسناد حسن.

(٢) المراغ : محل منبسط مملوء منه مثل المحل المملوء من التراب المعد لتمرغ الدواب، أي تمعكهم وتقلبهم فيه في الدنيا.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير»و«الأوسط» عن سهل بن سعد قال المنذري : إسناده جيد وقال الهيثمي : رجالها ثقات « فيض القدير» : ٢٣١٧

(٤) أخرجه أبو داود رقم ١٤٦٤ وأحمد ٢/١٩٢ وحسنه الأرناؤوط.

لتلاوته وتدبره والعمل به والتأدب بآدابه»[١]، فترفع أصوات أصحاب القرآن بالترتيل، ومع ارتفاع أصواتهم ترتفع درجاتهم، وما زال أحدهم يرتقي في درجات الجنة حتى آخر آية كان يحفظها أو كان يقرؤها ويعمل بها.

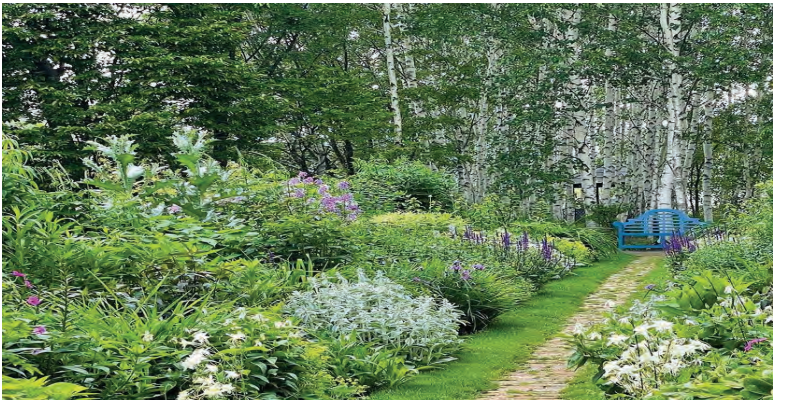
أما أولئك الذين كانوا يحاربون حملة القرآن وأصحابه، ويبعدون كتاب الله عن تطبيقه في واقعهم، ويضطهدون العاملين بكتاب الله، ويملؤون منهم السجون والمعتقلات لا لسبب سوى أنهم ذكروهم بالقرآن، وطلبوا منهم - وهم أصحاب الشأن - أن ينشروا أحكامه وأخلاقه بين الشعوب، ولكنهم اتخذوه وراءهم ظهرياً، وأصروا واستكبروا استكباراً، واستمروا في سلوكهم المعوج الذي زكمت منه الأنوف إلى حد الاختناق، وتفننوا في نشر الفساد.

أولئك لا يرتقون في درجات الجنة، بل يكبون على وجوههم، ويسحبون من أقدامهم ونواصيهم، ويدعّون إلى النار دعّاً، ويغل الواحد منهم بسلسلة ذرعها سبعون ذراعا،

(١) دليل الفالحين ٣/٤٩٤

ويلبسون ثياباً فصلت لهم من النار، كلما نضجت جلودهم، بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، يقذفون في النار، ويهبطون في دركات النار، بينما يرتقي أصحاب القرآن في درجات الجنة، وما بين الدرجة والأخرى، كما بين السماوات والأرض.

وبينما هم يرتقون في الدرجات، إذ يتعجب أحدهم عندما يرى درجته ترتفع، ويتساءل عن السبب، فهو يعلم أنه لم يعمل عملاً كبيراً يستحق هذا العلو الذي لم يتوقعه، وما كان يتوقع أن سبب هذا العلو ولده الصالح الذي تعب في تربيته التربية الصالحة، فعلمه القرآن حفظاً وتدبراً وعملاً،



وانتقى له أصحاب الصلاح، وأبعده عن رفقة السوء، وشجعه على كل فضيلة، وربى ابنته على الصلاح ولبس الحجاب الشرعي، وحذرها من أتباع الشيطان، فكان أبناؤه له امتداداً لعمله الصالح، كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق ﷺ عندما قال: «**إنَّ الرَّجلَ لتُرفَعُ درجتُه في الجنةِ فيقولُ: أنَّى لي هذا؟ فيقالُ: باستغفارِ ولدِك لكَ**»(١)

❐ بعدما ينزلوا منازلهم:

وبعد أن ينزل الناس منازلهم في الجنة، كل على قدر عمله وجهاده يسأل الله سبحانه وتعالى أحدهم عن أمنيته، فلا تكون أمنيته إلا العودة للدنيا ليراق دمه في سبيل الله عشرة مرات، ذلك هو الرجل القرآني الذي تعلق قلبه بالآخرة، حتى عشقها وأحب الله، حتى طهر الله قلبه مما سواه، هو الذي حدثنا عنه الرسول ﷺ، عندما قال: «**يُؤْتَى بالرجلِ يومَ القيامةِ من أهلِ الجنةِ، فيقولُ له: يا ابنَ آدمَ!**

(١) أخرجه أحمد وصححه الألباني ص.ج ص١٦١٣

كيف وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ! خيرُ مَنْزِلٍ، فيقولُ: سَلْ وتَمَنَّ، فيقولُ: يا ربِّ ما أسألُ ولا أَتَمَنَّى إلاَّ أن تَرُدَّنِي إلى الدنيا، فأُقْتَلَ في سبيلِك عَشْرَ مِرَارٍ، لِمَا يَرَى من فضلِ الشهادةِ»[(١)]، هذا هو المؤمن الذي تعلق قلبه بالآخرة، أما الذي اشترى الدنيا وباع الآخرة فيقول عنه الرسول ﷺ: «**ويُؤْتَى بالرجلِ من أهلِ النارِ، فيقولُ له: يا ابنَ آدمَ! كيف وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ! شَرُّ مَنْزِلٍ، فيقولُ له: أَتَفْتَدِي منه بطِلَاعِ الأرضِ ذهبًا؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ! نعم، فيقولُ: كَذَبْتَ قد سألتُكَ أَقَلَّ من ذلك وأَيْسَرَ، فلم تفعلْ فيُرَدُّ إلى النارِ**»[(٢)]

نعم. فقد سأله الله أقل من ذلك وامتنع، وقد قال رسوله ﷺ: «**اتَّقوا النَّار ولو بشِقِّ تمرةٍ**»[(٣)] وبخل حتى بإخراج نصف تمرة، أو بالتضحية بدقائق من وقته لأداء الفرائض، والآن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ٢٠٨)، واللفظ لأحمد

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٥)، وأحمد (٣/ ٢٠٨)، واللفظ لأحمد

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ٢٢٥، م (١٠١٦) (٦٨).

بعد أن أفلس من كل خيط من خيوط الأمل، قام يكذب على الله، بأنه مستعد بأن يقدم طلاع الأرض ذهباً ثمناً لفداء نفسه من ذلك المنزل.



كلامهم عندما يذبح الموت

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فيُنادِي مُنادي: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ لهم: هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنادِي مُنادٍ: يا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ لهم: هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، فيُذْبَحُ بين الجَنَّةِ و النَّارِ، ثُمَّ يقولُ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ويا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فلا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1] وأَشارَ بيَدِهِ إلى الدُّنْيا».[2]

فما أنكر أحد الفريقين معرفته بالموت، كان كل واحد منهم يدرك في الدنيا أنه سيموت في يوم من الأيام لا

(١) مريم: ٣٩

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٣٦١/ ٣٦٢)، في كتاب الرقاق ن وأخرجه مسلم رقم (٢٨٥٠) في كتاب الجنة واللفظ له.

محالة، ولكن أهل الجنة قد عودوا أنفسهم أيام الدنيا على تذكره، وكلما تذكروه زاد استعدادهم للآخرة، وأعدوا العدة كلما شعروا بقرب الرحيل، ذلك لأنهم تربوا على توجيهات النبي ﷺ، عندما قال: «**أكثروا ذكرَ هاذمِ اللَّذاتِ: الموتِ؛ فإنَّه لَم يذْكُرْه أحدٌ في ضيقٍ مِن العَيشِ إلاَّ وسَّعَه علَيهِ، و لا ذَكرَه في سَعةٍ إلاَّ ضيَّقَها عليهِ**»(١)

قال الطيبي: «شبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة، ثم أمر المنهمك فيها بذكر الهادم لئلا يستمر على الركون إليها، ويشتغل عما



(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» و ابن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة وحسنه الألباني (ص.ج.ص ١٢٢٢)

عليه من التردد إلى دار القرار»[١].

ويضع الغزالي يده على الداء العضال عند كثير من الناس، الذين يتذكرون الموت، ويرون الأموات، بل يشاركون في دفنهم، إلا أنهم لا يتعظون بكل ذلك. ثم يضع بعد ذلك الدواء حينما يقول: «الموت خطر هائل، وخطب عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل مشغول بالشهوات، ولا ينجح ذكره فيه، فالطريق أن يفرغ قلبه عن كل شيء إلا ذكر الموت الذي هو بين يديه، كمن يريد السفر، فإذا باشر ذكر الموت قلبه، أثر فيه، ويقل حركته وفرحه بالدنيا وينكسر قلبه. وأنفع طريق فيه أن يذكر أشكاله، فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في أحوالهم، ومناصبهم التي كانوا عليها، في الدنيا، ويتأمل كيف محى التراب حسن صورهم، وتبددت أجزاؤهم في قبورهم ويتموا أولادهم،

(١) «فيض القدير» ٢/ ٨٤.

وضيعوا أموالهم، وخلت مجالسهم، وانقطعت آثارهم» [١].

ولقد أجاد الإمام القرطبي في تعليقه على الحديث السابق، عندما بين فوائد ذكر الموت، بقوله: «ذكر الموت شعار يورث استشعار الانزعاج من هذه الدار الفانية والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة، الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة، فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها لقطعه عنها» [٢].



(١) «فيض القدير» ٢/ ٨٦.

(٢) «التذكرة» ١/ ١٦.

وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل. الرحيل. فلما توفي فقد صوته أمير المدينة، فسال عنه، فقيل: إنه قد مات، فقال:

مَا زالَ يَلْهَجُ بالرَّحِيلِ وَذِكْرِهِ
حَتَّى أَنَاخَ بِبَابِهِ الجَمَّالُ
فأَصَابَهُ مُتَيَقِّظَاً مُتَشَمِّرَاً
ذَا أُهْبَةٍ لَمْ تُلْهِهِ الآمَالُ[1]

وها هو يزيد "الرقاشي" احد كبار المذكرين من أهل الكوفة، وقد كان «من خيار عباد الله البكائين بالليل في الخلوات، والقائمين بالحقائق في السبرات»[2]، ولئن كان ضعيفاً في صناعة الحديث، فهذا لا يمنع من أن نستمع إلى موعظته إذ يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد، من ذا يصلى عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟، ثم يقول: أيها الناس: ألا تبكون

(١) «التذكرة» ١/١٦.
(٢) «كتاب المجروحين» لابن حبان ٣/٩٨.

وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله؟»[١]

لقد أقض ذكر الموت مضاجع القوم، وسرق النوم من أعينهم، حتى قال قائلهم:

إِنّـي أَرِقـتُ وَذِكـرُ الـمَـوتِ أَرَّقَـنـي
فقُلتُ لِلدَمعِ أَسعِدني فَأَسعِدني
إن لـم أبـك لـنـفـسـي مـشـعـرا حـزنـا
قبل الممات ولم آسف لها فمن



(١) «التذكرة» للقرطبي ١/ ١٦، ١٧

يـا مـن يـمـوت ولـم تـحـزنـه مـوتـتـه
ومـن يـمـوت فـمـا أولاه بـالـحـزن
لـمـن أثـمّـر أمـوالـي وأجـمـعـهـا
لـمـن أروح لـمـن أغـدو لـمـن لـمـن
لـمـن سـيـرفـع بـي نـعـشـي ويـتـركـنـي
في حفرتي تُرَّبَ الخدين والذقن[1]

ونستشعر الشفقة من خلال كلمات " اللفاف "وهو ينادي المنغمس في الدنيا، والغافل عن الآخرة والناسي للموت فيقول له :«تفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مفزعاً للقلوب، ومبكيا للعيون، ومفرقا للجماعات، وهادماً للذات، وقاطعاً للأمنيات، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق،

(١) «المدهش» لابن الجوزي ١٨٢.

وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر، و غطّوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر، فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان ليس لك من مالك والله من مال الا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته لمن لا يحمدك، وقدمت بأوزارك لمن لا يعذرك».[1]

ثم جاء أبو العتاهية ليخاطب الغافلين في ذكر الموت ويهزهم هزا، وهو يتألم لغفلتهم عن هذه الحقيقة الكبيرة، ويستبعد أن يكون ذلك نسيانا منهم، بل هو تناس عن عمد حتى يظلوا في لذاتهم الفانية، لا يريدون أن تتكدر بذكر



(١) «التذكرة» للقرطبي ص. ١٧، ١٨

الموت، فيصرخ فيهم ويقول:

أَتَناسَيتَ أَم نَسيتَ المَنايا
أَنَسيتَ الفِراقَ لِلأَولادِ
أَنَسيتَ القُبورَ إِذ أَنتَ فيها
بَينَ ذُلٍّ وَوَحشَةٍ وَاِنفِرادِ
أَيُّ يَومٍ يَومُ السِباقِ وَإِذ أَنتَ
تُنادى فَما تُجيبُ المُنادي
أَيُّ يَومٍ يَومُ الفِراقِ وَإِذ نَف
سُكَ تَرقى عَنِ الحَشا وَالفُؤادِ
أَيُّ يَومٍ يَومُ الفِراقِ وَإِذ أَنتَ
مِنَ النَزعِ في أَشَدِّ الجِهادِ
أَيُّ يَومٍ يَومُ الصُراخِ وَإِذ يَل
طِمنَ حُرَّ الوُجوهِ وَالأَجيادِ
باكِياتٍ عَلَيكَ يَندُبنَ شَجواً
خافِقاتِ القُلوبِ وَالأَكبادِ[1]

(١) «ديوان» أبي العتاهية ص ١٣١، ١٣٢.

فأهل الجنة عندما رأوا الموت ممثلاً بالكبش عرفوه ولم ينكروه، وقالوا: نعم إنه الموت. وكيف ينسونه، وهو الذي خلع فؤادهم، وأقلق راحتهم، ونغص عليهم لذاتهم، مما جعلهم يعملون دون ملل، ويستعدون ليوم لقاء الله سبحانه وتعالي، قبل أن تقضي أيامهم في الدنيا لذلك استحقوا البشارة من ربهم «**خُلودٌ فَلا مَوْتَ**»

وأما أصحاب النار، فقد كانوا يعرفون أنه الموت، ولكنهم كانوا ينسونه أو يتناسونه، مما جعلهم يستشعرون بالخلود في الدنيا، وكأنهم لا يموتون، فلم يستعدوا للآخرة، وشغلهم التسويف عن التوبة والعمل الصالح، لذلك استحقوا سماع بشارة السوء من ربهم" خلود فلا موت».

وهو جواب واحد لكلا الفريقين، ولكن أصحاب الجنة يخلدون في النعيم الدائم واللذة التي لا تنقطع، وأصحاب النار يخلدون في جهنم والعذاب الذي لا يخفف عنهم يوماً بل ولا ساعة، فيطلبون حينها الموت، الذي كانوا يتناسونه

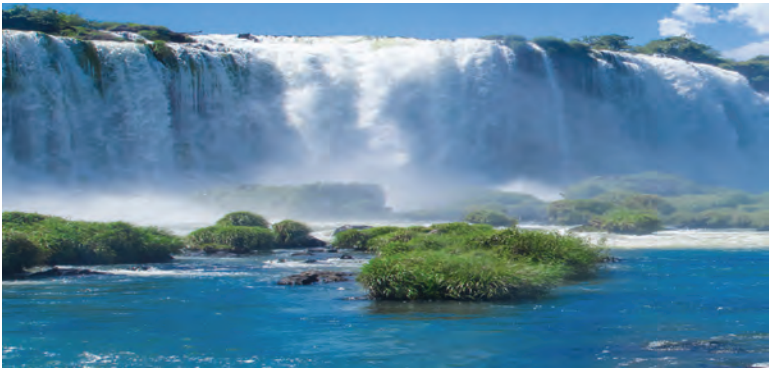
في الدنيا، ليكون أجمل أمانيهم في الآخرة، ولكن الله سبحانه وتعالي لا يلبي حتى هذه الأمنية لهم، ليذرهم في جهنم يعذبون.



كلامهم مع أهل النار

وبعد أن يسمع أهل الجنة كلمة الخلود في النعيم الدائم، ينادون أن هذا النعيم الدائم الذي هم فيه، إنما كان بسبب العمل الدائم والصبر على إغراءات الدنيا وزينتها وفتنتها. قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1].

وبعد أن يطمئن أهل الجنة إلى دارهم، يلتفتون إلى أهل النار، ويتذكرون استهزاءهم بهم، وبوعد الله لهم، ويتذكرون ما كانوا يذكرونهم به من وعد الله لمن أعرض



(١) الأعراف: ٤٣

عن ذكره، ويبدأ الحوار مع أهل النار، وتتقاذف الأسئلة من أهل الجنة لأهل النار وكأنهم يحققون معهم فهم اليوم أهل الموقف.

❑ الحوار الأول:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾[١] وفي هذا الموقف لا يملك أصحاب النار إلا الاعتراف والمهانة والمذلة، ولا يستطيعون الإنكار أمام ما ترى أعينهم من جحيم وتتخارس ألسنتهم عن جدال أصحاب الحق كما كانوا يفعلون في الدنيا، فلا يملكون سوى الاعتراف. ﴿قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾[٢] وتنتهي الأسئلة بهذا الجواب القاطع المختصر، لينادي مؤذن آخر من غير الفريقين، معقباً على جواب أهل النار. قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

---

(١) الأعراف: ٤٤

(٢) الأعراف: ٤٤

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾[١]

يقول صاحب الظلال: «فيتحدد معنى (الظالمين) المقصود، وهو مرادف لمعنى (الكافرين)، فهم الذين يصدون عن سبيل الله، ويريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه، وهم بالآخرة كافرون. وفي هذا الوصف: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدون عن سبيل الله، إنهم يريدون الطريق العوجاء، ولا يريدون الطريق المستقيم، يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة، فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه، وكل ما عداه فهو أعوج، وهو إرادة للعوج، وهذه الإرادة تلتقي



(١) الأعراف: ٤٤-٤٥

مع الكفر بالآخرة، فما يؤمن بالآخرة أحد ويستيقن أنه راجع إلى ربه، ثم يصد عن سبيل الله، ويحيد عن نهجه وشرعه»[١].

❑ الحوار الثاني:

ويستمر أهل الجنة في توجيه الأسئلة لأهل النار، وكأنهم معهم في تحقيق، ويستمر أهل النار بإعطاء الأجوبة بمهانة وذلة وانكسار. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[٢]

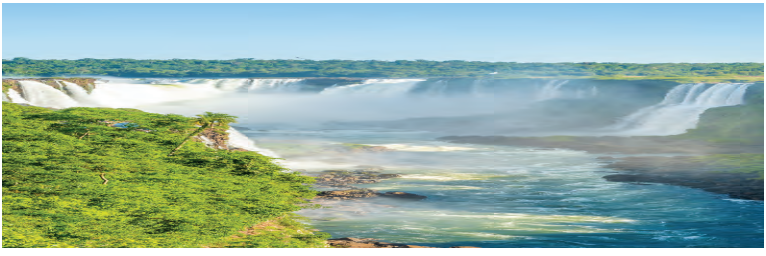
يقول سيد رحمه الله: «وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها، وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس

(١) «الظلال»: ٣/ ١٢٩٢، ١٢٩٣.

(٢) المدثر: ٣٨-٤٧.

القلوب لمسة مؤثرة، يلمس قلوب المجرمين المكذبين، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلون بهم في الدنيا ولا يبالونهم في موقف الكرامة، والاستعلاء، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾[1] ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم، وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين.

وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة، وأنهم فيه قائمون، وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها،



(١) المدثر: ٤٢

كأنه ماض انتهى وولى!

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر، يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين :

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾[١] وهي كناية عن الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل صاحبها في صف المؤمنين .

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾[٢] وهذه تلي عدم الإيمان، بوصفها عبادة الله في خلقه بعد عبادته - سبحانه - في ذاته، ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها، وانقطاع الإحساس للفقير في هذه البيئة القاسية، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه في مواضع

(١) المدثر: ٤٣

(٢) المدثر: ٤٤

الحاجة والعطف الخاص البريء.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾[١] وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة، وحقيقة الإيمان وأخذها مأخذ الهزل، واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال، وهي أعظم الجد وأخطر الأمر في حياة الإنسان، وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر في شؤون هذه الحياة، فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد؟ ويخوض فيها مع الخائضين، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾[٢] وهذه أس البلايا فالذي



(١) المدثر: ٤٥

(٢) المدثر: ٤٦

يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين، وتضطرب في تقديره جميع القيم، ويضيق في حسه مجال الحياة حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض، ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير، فلا يطمئن إلى هذه العواقب، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير، ومن ثم تفسد مقاييسه كلها، ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها.. وينتهي من ثم إلى شر مصير.

والمجرمون يقولون: إننا ظللنا على هذه الأحوال، لا نصلي، ولا نطعم المسكين، ونخوض مع الخائضين، ونكذب بيوم الدين. ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[1] الموت الذي يقطع كل شك، وينهي كل ريب، ويفصل في الأمر بلا مرد. ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح بعد اليقين.

ويعقب السياق على الموقف السيء المهين، بقطع كل

(١) المدثر: ٤٧

أمل في تعديل هذا المصير: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[١] فقد قضي الأمر، وحق القول، وتقرر المصير الذي يليق بالمجرمين المعترفين! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً، وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين !)[٢].

❐ الحوار الثالث:

ثم تنبعث أصوات مخلوطة بالبكاء والعويل من وراء ذلك السور الذي ضرب بين المؤمنين أهل الحق وبين أهل الباطل، والذي باطنه الذي يلي أصحاب الجنة فيه الرحمة،



(١) المدثر: ٤٨

(٢) «الظلال»: ٦/ ٣٧٦١.

وظاهره الذي يلي أصحاب النار فيه العذاب، مستجديه الماء من أهل الجنة، أو من أي شيء رزقهم الله، ليسدوا ظمأهم الذي شقق ألسنتهم وحلوقهم التي كانوا يتشدقون بها طعناً واستهزاءً وسخرية بأصحاب الحق، وبكل توجه نحو الإسلام، في صحفهم ومنتدياتهم وإعلامهم المضلل، وليخففوا شيئاً من آلام الأمعاء التي ملؤوها بالحرام.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾[1]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله**»[2]

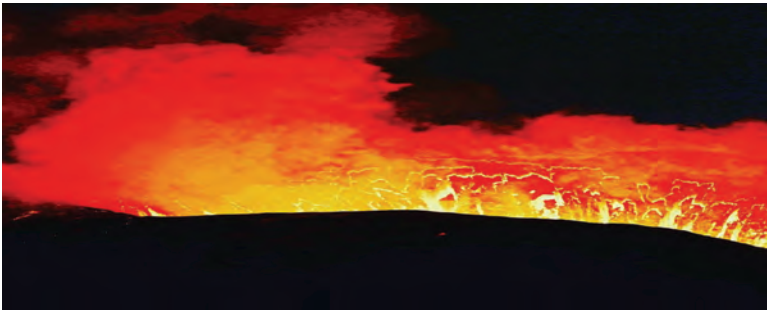
---

(١) الأعراف: ٥٠

(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه والبيهقي في «شعب الأيمان» عن ابن عباس. وذكره محمد نسيب الرفاعي في «تيسير العلي القدير» ٢/٢٠٦ دون تعليق. =

وبعد أن سمع أهل الجنة نداء أهل النار واستغاثتهم، تلقى أهل النار الجواب القاطع منهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١) وتقطعت مع هذا الجواب كل أمانيهم في الحصول على شيء، أي شيء لتخفيف ما يلاقونه من آلام.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ (٢)



= وعلق الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) ٩٦٠، ٩٦٢ قال: حسن لغيره.

(١) الأعراف: ٥٠

(٢) الأعراف: ٥١

يقول الشيخ المراغي: «وقد وصف أهل الجنة الكافرين بأنهم هم الذين كانوا السبب في هذا المنع والحرمان، إذ جعلوا دينهم أعمالاً لا تزكي الأنفس، ولا تجعلها أهلا للتشريف والكرامة، بل هي إما لهو يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة، وإما لعب لا يقصد منه فائدة صحيحة، فهو كأعمال الأطفال، وقد غرتهم الحياة الدنيا شهواتها ولذاتها من الحرام والحلال»[١] فمن كان هذا حاله استحق النسيان والإهمال وانتزاع الرحمة منه وتركه في النار.

يقول الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٢] أي: يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[٣] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة

(١) «تفسير» المراغي: ٨/ ١٦٤.
(٢) الأعراف: ٥١
(٣) طه: ٥٢

كقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[٢] قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[٣] وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[٤] قال: «نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر»[٥].



(١) التوبة: ٦٧
(٢) طه: ١٢٦
(٣) الجاثية: ٣٤
(٤) الجاثية: ٣٤
(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢١٩

كلامهم عن أصحابهم في الدنيا

ولا يضيع أهل الجنة أوقاتهم في التحدث والحوار مع أهل النار، وإنما ينشغلون فيما أعد الله لهم من نعيم، ويتجمع أهل الجنة مع بعضهم البعض يتسامرون، ويتحدثون عن أمور حدثت لهم عندما كانوا في الدنيا، وفي مجلس من هذه المجالس قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1]

وإذا أحدهم يستعيد ماضيه، ويقص على إخوانه طرفاً مما وقع له قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2]

يقول سيد رحمه الله: «لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر، ويسائله في دهشة: أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام؟! وبينما هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره، وهو يعرف بطبيعة

(١) الصافات: ٥٠

(٢) الصافات: ٥١-٥٣

الحال أنه قد صار إلى الجحيم، فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[1] عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم، يتوجه إليه ليقول له: يا هذا! لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك، لولا أن الله قد أنعم علي فعصمني من الاستماع إليك قال تعالى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[2] أي: لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون.

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين، فيجب أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، تلذذاً بها وزيادة في المتاع بها، فيقول: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾»[3]

---

(١) الصافات: ٥٤-٥٥

(٢) الصافات: ٥٦-٥٧

(٣) "في ظلال القرآن": ٥/ ٢٩٨٧، ٢٩٨٨

كلامهم مع زوجاتهم في الجنة

روى مسلم في«صحيحه» عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ في الجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَها كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمالِ فَتَحْثُو في وُجُوهِهِمْ وثِيابِهِمْ، فَيَزْدادُونَ حُسْنًا وجَمالاً، فَيَرْجِعُونَ إلى أهْلِيهِمْ وقَدِ ازْدادُوا حُسْنًا وجَمالاً، فيَقولُ لهمْ أهْلُوهُمْ: واللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسْنًا وجَمالاً، فيَقولونَ: وأَنْتُمْ، واللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسْنًا وجَمالاً**»[1]

❑ رياح الشمال :

فلئن كانت رياح الشمال في الدنيا تنبعث معها علامات



(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٣) كتاب الجنة.

الخوف والهلع، مما يصحبها من برد قارص، وهيجان لمياه البحار التي تسبب الفيضانات التي تغرق كثيراً من المساكن وتجعل أهلها بلا مأوى، فإن رياح الشمال في الجنة تختلف إختلافاً كلياً عما عليه في الدنيا، فهي تحمل معها كل ما من شأنه زيادة الحسن والجمال لأهلها، فها هي تهب عليهم، ولكنهم لا يخافون منها بل يستقبلونها بوجودهم، فرحين بها، فيزدادون عندما تلامس وجودهم وثيابهم جمالاً على جمالهم، حتى تلاحظ أزواجهم تلك الزيادة في الجمال، فيقولون لهم: «واللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسْنًا وجَمالًا»، فيردون على زوجاتهم وقد لاحظوا هم أيضاً زيادة في جمالهن «واللَّهِ وأَنْتُمْ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنا حُسْنًا وجَمالًا».

❐ جمال الحور:

فإذا علمنا أن رسول الله ﷺ قد وصف جمال نساء الجنة بقوله: «**لَوْ اطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمَلأَتْ بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، ولتاجها على**

رأسها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[١]، فلا نستغرب ذلك الإعجاب العظيم من الرجال لأزواجهم من الحور، حتى أن أحدهم ليرى وجهه في وجهها من جمالها وصفائها كما أخبر النبي ﷺ قال: «**إنَّ الرجُلَ لَيَتَّكِئُ في الجنةِ سَبعينَ سنةً قبلَ أنْ يَتحوَّلُ، ثُمَّ تَأتِيهِ امْرأتَهُ، فيَنظرُ وجهَهُ في خَدِّها أصْفَى من المِرآةِ وإنَّ أدْنَى لُؤلُؤةٍ عليها تُضيءُ ما بين المشرِقِ والمغربِ، فتُسَلِّمُ عليه، فيَرُدُّ السلامَ، ويَسألُها: مَنْ أنتَ؟ فتَقولُ: أنا من المزيدِ، وإنَّهُ لَيكونُ عليها سَبعونَ ثوبًا؛ أدْناها مِثلُ النُّعمانِ من طُوبَى، فيُنفِذُها حتى يَرَى مُخَّ ساقِها من وراءِ**



(١) رواه الطبراني. قال الهيثمي: إسناده جيد "مجمع الزوائد" ١٠/ ٤١٨.

ذلِكَ، وإنَّ عليْها من التِّيجانِ إنَّ أدْنى لُؤلُؤةٍ لَتُضِيءُ ما بين المشرِقِ والمغرِبِ».(١)

❐ أغاني الحور :

ولئن كان غيرهم في الدنيا يستمع ويطرب لأغاني المغنيات الحاث على الزنى، والمميت للرجولة، فإنهم عصموا آذانهم من الاستماع لمثل هذه الأصوات التي تغضب الله تعالى، وقصروها على سماع القرآن الكريم، فأبدلهم الله خيراً من تلك الأصوات عندما أدخلهم إلى الجنة، وجعلهم يستمعون إلى أصوات العفيفات الطاهرات الخالدات، واللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.

عن ابن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ أزواجَ الجَنَّةِ لَيُغنِّينَ أزواجَهُنَّ بأحسَنِ أصواتٍ سَمِعَها أحَدٌ قَطُّ، إنَّ ممَّا يُغنِّينَ : نحنُ الخيِّراتُ الحِسانْ، أزْواجُ قَومٍ كِرامْ، يَنظُرْنُ**

(١) قال الهيثمي في الزوائد(١٠/ ٤١٩)رواه أحمد وأبو يعلي وإسنادهما حسن.

بِقُرَّةِ أعيانْ، وإنَّ ممَّا يُغنِّينَ به : نحنُ الخالداتُ فلا نَمُتنَهْ، نحنُ الآمِناتُ فلا نَخَفنَهْ، نحنُ المُقيماتُ فلا نَظعَنَّهْ»[1] فهنيئاً لمن صبر عن سماع أصوات الشيطان ليستمع في الجنات إلى أصوات الحور.



(١) قال الهيثمي في الزوائد (١٠/ ٤١٩) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح- وصححه الألباني (صحيح الجامع ١٥٦١).

كلامهم عن أيام الدنيا

❐ ثناؤهم على الله :

وبعدما يرون هذه النعم التي تتساقط عليهم وتحف بهم من كل مكان، وهذه اللذائذ مما لم يروها من قبل ولم يسمعوا بها ولم تخطر على بال أحد منهم، حتى إنه كما قال الرسول ﷺ : «**لو أنَّ ما يقلُّ ظفرٌ مِمَّا في الجنَّةِ بَدا لتَزخرفَت لَهُ ما بينَ خوافقِ السَّماواتِ والأرضِ، ولو أنَّ رجلًا من أَهْلِ الجنَّةِ اطَّلعَ فبدا أساورُهُ لطَمسَ ضوءَ الشَّمسِ كما تَطمِسُ الشَّمسُ ضوءَ النُّجومِ**»[1]، فكيف بمن يعيش في ساحات من ذلك النعيم لا يعرف مساحتها إلا الله، مملوءة بهذه اللذائذ، بعد أن يروا هذا يتذكرون أيام الدنيا، وما لاقوا فيها من ابتلاء ومحن في أنفسهم وأبنائهم وأهليهم وأموالهم، فكأنهم يتنفسون الصعداء، ويقولون: ﴿وَقَالُوا

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي، وصححه الألباني (ص. ج. ص٥١٢٧)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾[1]

«ويتذكرون ذنوبهم وعفو الله عنهم فيقولون ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات، وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمغفرته نجوا، وفازوا بكل مرغوب محبوب. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة



(١) فاطر: ٣٤-٣٥

خيراتها وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها.﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع.

وهذا يدل، على أن الله تعالى يجعل أبدانهم، في نشأة كاملة، ويهيء لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة، لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون».[1]

❐ تحسر أهل الجنة:

فلا يوجد في الجنة حزن ولا نصب ولا لغوب، وإذا تحسروا فإنما يتحسرون على ساعات قضوها في الدنيا لم يذكروا الله فيها لينالوا نعيماً أكثر مما هم فيه، وهذا ما بينه

(١) «تفسير كلام المنان» للشيخ السعدي ٦/ ٣٢٢، ٣٢٣

رسول الله ﷺ بقوله: «**ليسَ يتحسَّرُ أَهلُ الجنَّةِ على شيءٍ إلاَّ على ساعَةٍ مرَّت بِهِم لم يذكُروا اللَّهَ عزَّ وجلَّ فيها**»(١).

قال الشيخ المناوى: «وذلك لأنهم لما عرضت عليهم أيام الدنيا، وماذا خرج لهم من ذكر الله تعالى، ثم نظروا إلى الساعة الأخرى التي حرموا فيها الذكر مما تركوه من ذكره، فأخذتهم الحسرات، لكن هذه الحسرات إنما هي في الموقف لا في الجنة، كما بينه الحكيم وغيره والغرض من السياق أن تعلم أن كل حركة ظهرت منك بغير ذكر الله فهي عليك لا لك، وإن أدوم الناس على الذكر أوفرهم حظاً، وأرفعهم درجة، وأشرفهم منزلة، والجوارح والكواسب



(١) أخرجه الطبراني وصححه الألباني (ص. ج. ص ٥٣٢٢.)

للخير سبعة في العبد: السمع، والبصر، واللسان، واليد، والرجل، والبطن، والفرج. فمن حرك هذه الجوارح بالذكر ترقى إلى منازل المفردين الذي قال فيهم المصطفى ﷺ الحديث المار«**سبق المفردون**»(١) ومن حرك جوارحه وظلم نفسه حيث أرداها فأوجب لها التحسر والإبعاد» (٢).

ثم يستشعرون نعمة الهداية التي أوصلتهم إلى الجنة، فيقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ (٣)

❐ تذكر ثمار الدنيا:

ثم تثور ذكريات الماضي «أيام الدنيا» عندما يرون فاكهة تشابه الفاكهة التي كانوا يأكلونها في الدنيا، ولكن تختلف عنها في الحجم والطعم. قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن

(١) رواه مسلم ٢٦٧٦- وتكملته (قالوا: وما المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»).

(٢) «فيض القدير» ٥/ ٣٩٠.

(٣) الأعراف: ٤٣

ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ ﴾[١]

يقول إمام المفسرين ابن جرير الطبري: «وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية، تأويل من قال: وأتوا به متشابهاً في اللون والمنظر، والطعم مختلف، يعني بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا في المنظر واللون، مختلفاً في الطعم والذوق»[٢]، بل مختلف في الطعم والذوق والحجم والرائحة والفائدة.

❐ تذكر دعاؤهم في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا



(١) البقرة: ٢٥

(٢) تفسير الطبري - تحقيق أحمد شاكر: ١/ ٣٩٢- بتصرف

﴿قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[1]

يتذكرون دعاءهم أوقات الضيق، وأكفهم المرفوعة إلى السماء طالبة القبول لأعمالهم، والتوفيق للعمل الصالح، وأن يكونوا من ورثة جنة النعيم.

يتذكرون دعاءهم في صلواتهم كل يوم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[2].

ويتذكرون جباههم وهي ساجدة لله تعالى، يناجون ربهم.

ويتذكرون دعاءهم مع خوفهم من ذنوبهم وتقصيرهم عندما كانت تترقرق مقاليهم بالدموع خوفاً من عدم القبول أو من الخاتمة السيئة.

ويتذكرون مناجاتهم لله سبحانه وتعالى أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه طالبين المغفرة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

---

(١) الطور: ٢٥-٢٨

(٢) الفاتحة: ٦-٧

يقول سيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم، عاشوا في خشية من لقاء ربهم، عاشوا مشفقين من حسابه، عاشوا كذلك وهم في أهلهم حيث الأمان الخادع، ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشغلة الملهية ولكنهم لم ينشغلوا، عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم الذي يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلاً، لما علم من تقواهم وخشيتهم بمنة من الله وفضلٍ. فما يبلغ العمل أكثر مما يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ورغب فيما عند الله.

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾[1] وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبيده: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] وكذلك ينكشف سر الوصول في تناجي هؤلاء الناجين المكرمين في دار النعيم»[3]

---

(١) الطور: ٢٨

(٢) الطور: ٢٨

(٣) «في ظلال القرآن»: ٦/ ٣٣٩٧- دار الشروق.

كلام أدنى أهل الجنة منزلة

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً، رَجُلٌ صَرَفَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ، وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ! قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَأَكُونَ فِي ظِلِّهَا، فَقَالَ اللَّهُ : هَلْ عَسَيْتَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ ؟ قَالَ : لاَ وَعِزَّتِكَ فَقَدَّمَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ وَثَمَرٍ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا وَآكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا. فَقَالَ اللَّهُ : هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ ؟ فَيَقُولُ لاَ وَعِزَّتِكَ فَيُقَدِّمُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، فَيُمَثَّلُ الله لَهُ شَجَرَةٌ أُخْرَى ذَاتُ ظِلٍّ وَثَمَرٍ وَمَاءٍ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ! قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا وَآكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا



وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ ؟ فَيَقُولُ : لاَ وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَيُقَدِّمُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، فَيَبْرُزُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَأَكُونَ تَحْتَ سجَافِ الْجَنَّةِ، وَأَرَى أَهْلُهَا، فَيُقَدِّمُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، فَيَرَى الْجَنَّة وَمَا فِيهَا، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ! أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ' فَإِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ قَالَ : هَذَا لِي ! فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ : تَمَنَّ فَيَتَمَنَّى، وَيُذَكِّرُهُ اللَّهُ ﷻ سَلْ مِنْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ : هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، قَالَ ثُمَّ يَدْخُلُه الله الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، فَيَقُولاَنِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ، فَيَقُولُ مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ ــ وَأَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يُنْعَلُ مَنْ نَارٍ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ»[1]، لقد كان أكثر الناس معصية، فاستحق أن يكون آخر الناس خروجاً من النار، إلا أنه لم يخلد فيها، لأنه كان موحداً ولم يشرك بالله

(١) أخرجه أحمد ومسلم، واللفظ لأحمد (٣/ ٢٧). ومسلم (١/ ١٢٠، ١٣٥).

تعالى والموحدون لا يخلدون في النار.

لقد عمل من المعاصي الكثيرة ما جعله آخر الناس دخولاً للجنة وأدناهم منزلة، و مع ذلك يعطي كل هذا النعيم، الذي يجعله يظن أنه أكثر أهل الجنة نعيماً، فكيف يكون حال أولئك الذين كانوا أكثر الناس طاعة لله؟ وإذا كان أقل الناس عذاباً في ذلك اليوم من ينتعل نعلين من نار يغلي دماغه منهما، فكيف بأولئك الذين هم أكثر الناس عذاباً ؟؟ إننا أمام هذه التساؤلات لا نستطيع أن نجيب بأكثر مما وصف الرسول ﷺ من نعيم أهل الهمم العالية: «**ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1] وكذلك أكثر الناس عذاباً في جهنم.



(١) رواه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).

كلامهم
قبل إحلال الرضوان عليهم

عن أبي سعيد الخدري : أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ : يا أهلَ الجنَّةِ ! فيقولونَ : لبَّيْكَ ربَّنا وسعدَيْكَ والخيرُ في يدَيْكَ. فيقولُ : هل رضِيتُم ؟ فيقولونَ : وما لنا لا نرضى يا ربِّ وقد أعطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحدًا مِن خَلْقِكَ؟ فيقولُ : ألا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلكَ ؟ فيقولُون : يا رَبِّ، وأَيُّ شَيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسخَطُ عليكم بعدَه أبدًا**»(١)

لقد ربوا أنفسهم أيام الدنيا على الرضى والإستسلام لكل ما يصيبهم من بلاء، لأنهم كانوا يستشعرون دائماً حقيقة العبودية لله تعالى، وليس للعبد أن يعترض على مولاه. وتحملوا وصبروا على المكاره إبتغاء رضوان الله تعالى.

فها هي اللحظة التي يستمعون فيها مشافهة من عند

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٢٩ كتاب الجنة.

مولاهم وحبيبهم «الله» الكلمة التي عملوا في الدنيا، وبلغوا ما أمرهم به الله، وتحملوا المشاق في سبيل ذلك، وتبرؤا من أقرب الناس إليهم من أجل الحصول عليها، ها هم يستعمون إليها «**أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسخَطُ عليكم بعدَه أبدًا**» فتتوقف مع هذه الكلمة كل هواجس الخوف الإيماني، من الخوف من النار، والخوف من سوء الخاتمة، والخوف من النفاق، والخوف من عدم القبول، والخوف من غضب الله، وغيرها من أنواع الخوف الإيماني، الذي كان يتملكهم عندما كانوا في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[1] فلا يوجد في الجنة إلا الفرح الدائم والنعيم الخالد.



(١) الطور: ٢٦

كلامهم
قبل رؤيته سبحانه وتعالى

عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «**إذا دَخَلَ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قالَ: يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أزِيدُكُمْ؟ فيَقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ**»(١).

- لقد أنفقوا كل ما يملكون في سبيله دون أن يروه.
- وتبرؤا من الآباء والأمهات والزوجات والأبناء والعشيرة من أجله دون أن يروه.
- وتحملوا أذى أعدائه في سبيله دون أن يروه.
- وقدموا أنفسهم ودماءهم في سبيله دون أن يروه.
- وسألت الدموع في الخلوات، وتفطرت الأقدام في الليالي الطوال من أجله دون أن يروه.
- و أجاعوا أنفسهم صوماً أيام الحر الشديد في سبيله

(١) أخرجه مسلم ١٨١ كتاب الإيمان.

دون أن يروه.

- قدموا كل ذلك له سبحانه وتعالى دون أن يروه، فكيف إذا رأوه؟؟ هل ستكون لذة أعظم من تلك اللذة !!

«**فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ**».



الفصل الثاني

تخاصم أهل النار

تخاصم أهل النار

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[1].



(١) ص: ٥٩-٦٤

تخاصمهم بعد النفخ في الصور

يقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحده تسمى ﴿زَجْرَةٌ﴾ للدلالة على لون من الشدة فيها، والعنف في توجيهها، والاستعلاء في

(١) الصافات: ١٩-٣٥

مصدرها ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ فجأة و بلا تمهيد أو تحضير، وإذا هم يصيحون مبهوتين ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ وبينما هم في بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل إليهم التقريع من حيث لا يتوقعون ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]

ثم يبدأ بعد ذلك أول تخاصم لأهل النار، يلوم بعضهم الآخر، وكأنها محاولة منهم للتنصل من التبعية، لعل ذلك يعوضهم من محاسبة الجبار، وهو ذاته الأسلوب الذي كانوا يستخدمونه في الدنيا، فإذا ما اتهم أحدهم بجريمة، سارع بإلصاقها بالآخرين الذين يمارسون نفس جريمته، أو أنه يبرر جريمته حتى يتنصل مما تحكم فيه المحكمة.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2] إنه هو السبب الذي أدخلهم النار .

(١) «في ظلال القرآن» ٥/ ٩٨٦-الشروق

(٢) الصافات: ٣٤-٣٥

- إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا معبود بحق سوى الله يستكبرون.
- إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا مشرع إلا الله يستكبرون
- إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا حكم ولا دستور إلا حكم الله يستكبرون
- إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا خضوع ولا ذل ولا انقياد ولا طاعة إلا لله يستكبرون ولا يكتفون بالإعراض والاستكبار، إنما يقومون بتهديد من يعلن ذلك أو اضطهاده أو إخراجه من بلده وطرده منها، أو تعذيبه، أو قتله بأي حجة يصطنعونها لكي يزيلوا تلك العقبات، ويبقى الناس يعبدونهم وحدهم هم دون شركة مع الله سبحانه .



تخاصمهم عند الحشر

يقول تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١]

هكذا يأتي الأمر من الملك الذي لا ملك سواه في ذلك اليوم، والأمر للذين لا يأمرهم سواه ﴿ٱحْشُرُواْ﴾ فتتخطف الملائكة الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من جن أو إنس أو حجارة.

يحشرون عرايا الأجساد غرلاً، أي غير مختونين، ولا ينظر أحدهم للآخر من هول الموقف، فالأمر كما أخبر الرسول ﷺ «**أَشَدُّ مِن أَنْ يُهِمَّهُمْ ذاكِ**»[٢] ملايين الملايين من الإنس والجن والملائكة والعمالقة والأقزام والأمراء والملوك والأولين والآخرين، الكل محشور في أرض

---

(١) الصافات: ٢٢-٢٤

(٢) بدايته «**تحشرون حفاة عراة غرلا. قال عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**» رواه البخاري (٦٥٢٧)..

المحشر، لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء، إلا من شاء الله،يحشر بعضهم أعمى وأخر أبكم، وأصم يرى هذه الأهوال أمامه يريد أن يتكلم ولكنه لا يستطيع أن يعبر عما يختلج في نفسه، وماذا يقول وهو لا يسمع، أما الأبكم فإنه يرى أمام عينيه تلك الأهوال المرعبة ويرى الناس تبكي، ويراهم قد الجمهم عرقهم عندما دنت الشمس من الرؤوس بمقدار ميل، ويسمع كل ذلك، ولكنه أبكم لا يستطيع النطق، مما يزيده ألماً على ألمه، حتى يكاد أن ينفجر، أما الأعمى فإنه يسمع هذه الصرخات، وتلك التشققات في السموات و يتدافعه ملايين البشر، أحدهم بيده، وآخر يركله برجله، فتارة يضرب بوجهه، وأخرى ببطنه، و أخرى بظهره، وهكذا يظل بين هذه الملايين لا يعرف طريقه،



فيصيح و هو لا يتمالك شعوره : قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾[١].

الآن يطلب من المولى البصر، وكان في الدنيا يصر على أن يكون أعمى عن الحق، فإن جاءه الحق على أيدي العلماء و الدعاة أعرض ونأى بجانبه، وأصر واستكبر استكباراً، فالآن يذكره الله بذلك التعامي في الدنيا الذي كان يصر عليه، فيرد على تساؤله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[٢] وبينما هذا الأعمى مشغول فيما يلاقي، فإذا بفئة أخرى في بقعة أخرى من أرض المحشر، محشورة على وجوهها، وآلاف الأقدام تطؤها، الدماء تخضبها، حتى تصل إلى أرض المحشر، لتنتظر المساءلة، حتى إن أحد الصحابة يتعجب من ذلك، ويسأل الرسول ﷺ: أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله ﷺ: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِّجْلَيْه فِي الدُّنْيَا قَادِر عَلَى أَنْ**

(١) طه: ١٢٥
(٢) طه: ١٢٦

يُمْشِيهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١]، في هذا الجو يصبح العتاب والتخاصم عديم المنفعة، إلا ما كان من باب التنفيس عن أنفسهم، ولعلهم يجدون شيئاً من الراحة في هذا التنفيس، فلا يجدونها، بل يزدادون ألماً على ألمهم. قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[٢]



(١) رواه البخاري (٦٥٢٣).

(٢) النبأ: ٣٠

تخاصمهم مع جلودهم

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]

جاء في «صحيح» مسلم مساءلة الله لأحد المجرمين يوم الحساب قوله: «أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟! فيَقولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ، فيَقولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فيَقولُ: أَيْ رَبِّ آمَنْتُ بكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بخَيْرٍ ما اسْتَطَاعَ. فيَقولُ: هَاهُنَا إِذنْ. ثُمَّ يقول: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِداً عَلَيْكَ، فيَتَفَكَّرُ في نَفْسِهِ: مَن ذَا الذي يَشْهَدُ عَلَيه؟ فيُخْتَمُ علَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بعَمَلِهِ؛ وَذلكَ لِيُعْذِرَ مِن نَفْسِهِ،

(١) فصلت: ١٩-٢١

وَذلكَ المُنَافِقُ»[١]

عجيب أمر هذا الطاغية، إنه يحاول أن يخدع الله بتلك الدبلوماسية التي كان يستخدمها في الدنيا مع الناس فيقول: «آمنت بك وبكتابك...الخ»، ونسي أن الله مطلع على ما في صدره. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[٢].

وأعجب من هذا ما رواه مسلم في «صحيحه». عندما ضحك الرسول ﷺ من عبد يقول لله يوم القيامة: «**فإنِّي لا**



(١) أخرجه مسلم ـ رقم ٢٩٦٨ في الزهد ـ وهو جزء من الحديث.
(٢) غافر: ١٩

أُجيزُ اليوم على نفسي شاهدًا إلاَّ منِّي فيقولُ : كفى بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيدًا، والكِرامَ الكاتِبينَ شهودًا، فيُختَمُ على فيه، و يُقالُ لِأركانِه : انطِقي، فتنطِقُ بأعمالِه، ثمَّ يُخلَّى بَيْنَه وبَيْنَ الكلامِ، فيقولُ : بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا، فعنكنَّ كُنْتُ أُناضِلُ» (١) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (٢) ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (٣)

عندما قال له سبحانه وتعالى : (الآن نبعث عليك شاهداً) أخذ يتفكر في نفسه : من هذا الذي يتجرأ أن يشهد عليه ؟ وهو يحسب أنه ما زال ذلك الإنسان الذي يخافه الآخرون لبطشه وجبروته، أو لماله ومنصبه، ولم يتوقع أن يكون الشاهد أقرب شيء إليه، وألصق شيء به، وإذا به يسمع من

(١) أخرجه مسلم ــ رقم ٢٩٦٩ كتاب الزهد.
(٢) النور : ٢٤
(٣) فصلت : ٢١

أذنيه الأصوات تنبعث من كل مكان من جلده ومن جوارحه، الرجل تتكلم، واللسان يتكلم، واليد تتكلم ويرى بعينيه ما لا يصدق، كيف تتكلم يده التي كان يبطش بها ؟ كيف يتكلم جلده الذي كان يزني به ؟ كيف تتكلم قدمه التي كان يسير بها إلى أماكن المعصية؟ ثم يقول بذهول مخاطباً جلده: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فيردون عليه بعبودية كاملة لله سبحانه وتعالى ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ .

يقول سيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله في فطرة الكون، وسلطان الله في تاريخ البشر، يطلعهم على سلطان الله في ذوات أنفسهم، التي لا يملكون منها



شيئاً، ولا يعصمون شيئاً من سلطان الله، حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم في الموقف المشهود، وتكون عليهم بعض الشهود: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ (١).

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب، وسلطان الله الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب، وهم يوصمون بأنهم أعداء الله؟

إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، كالقطيع! إلى أين؟ إلى النار! حتى إذا كانوا حيالها، وقام الحساب، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب، إن ألسنتهم معقودة لا تنطق، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سراً، فقد كانوا يستترون من الله، ويظنون أنه لا

(١) فصلت: ١٩

يراهم، وهم يتخفون بنواياهم، ويتخفون بجرائمهم، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم، وكيف وهي معهم؟ بل كيف وهي أبعاضهم؟! وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين، وعن الله رب العالمين !

يا للمفاجأة بسلطان الله الخفي، يغلبهم على أبعاضهم، فتلبي وتستجيب[١].



(١) الظلال : ٣١١٨/٥، دار الشروق.

تخاصمهم عند رؤية جهنم

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

❐ المستضعفون يتهمون المستكبرين:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا

(١) سبأ: ٣١-٣٣

مُؤۡمِنِينَ ﴾

يقول سيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهبة المهينة، وما يتوقعون بعدها من البلاء! يقولون لهم هذه القولة الجاهزة اليوم، ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام، وبيع الحرية التي وهبها الله لهم، والكرامة التي منحها اياهم، والإدراك الذي أنعم به عليهم، أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة، وواجهوا العذاب الأليم، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾!

ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا، فهم في البلاء سواء وهؤلاء الضعفاء، يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء



الذي صار بهم إلى هذا البلاء! وعندئذ يردون عليهم باستنكار، ويجيبونهم بالسب الغليظ.

❐ المستكبرون يتخلون عن التبعة :

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فهو التخلي عن التبعة، والاقرار بالهدى، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين، ولا يأخذون منهم رأياً، ولا يعتبرون لهم وجوداً، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا ومناقشة ! أما اليوم - وأمام العذاب - فهم يسألونهم في إنكار: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ من ذات أنفسكم، لا تهتدون، لأنكم مجرمين !.

ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة، ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة، وتتفتح العيون المغلفة، وتظهر الحقائق المستورة، ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا

ليلاً للصَّد عن الهدى، وللتمكين للباطل، ولتلبيس الحق، وللأمر بالمنكر، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

❐ الحوار البائس :

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن، هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء، ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين، فلكل جريمته وإثمه، والمستكبرون عليهم وزرهم، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم، والمستضعفون عليهم



وزرهم، فهم مسؤولون عن أتباعهم للطغاة، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين، لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً، وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين، فاستحقوا العذاب جميعاً، وأصابهم الكمد والحسرة، وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهيأ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ ، وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور، فلا تفوه بها الألسنة ولا تتحرك بها الشفاه .

ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين، وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان، وإدراك

الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان، وكلهم في العذاب سواء، لا يجزون إلا ما كانوا يعملون..»[١].



(١) الظلال: ٥/ ٢٩٠٩ ـ لم أستطع أن أزيد على ما ذكره سيد رَحِمَهُ اللَّهُ ـ سوى العناوين الفرعية، فهي رائعة من روائعه وفتح رباني فتح الله عليه به.

تخاصمهم عند مجيء النار

قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾[١]

روى مسلم في «صحيحه» عن الرسول ﷺ: «**يؤتى بالنّار يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زِمامٍ، ومع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يَجرُّونَها**»[٢]

❑ تمنى الرجوع للعمل:

عندما يرى جهنم بهذا المنظر المخيف المرعب، ويرى أربعة آلاف وتسعمائة مليون[٣] ملك يجرونها وهي تشهق وتزفر، ثم يرى ما أخبر عنه الرسول ﷺ: «**يَخرجُ عُنقٌ من النَّارِ يومَ القِيامةِ له عينانِ تُبصِرانِ، وأُذُنانِ تَسْمَعانِ، ولِسانٌ يَنطِقُ، يقولُ: إنِّي وُكِلْتُ بثلاثةٍ: بِمن جعل مع اللهِ إلهًا**

---

(١) الفجر: ٢٣-٢٦

(٢)أخرجه مسلم: ٢٨٤٢..

(٣) هذا يعني أربعة مليار وتسعمئة مليون ملك.

آخرَ، وبكلِّ جَبَّارٍ عنِيدٍ، وبِالمُصوِّرِينَ»[١] وعندما يرى كل ذلك ينهار، ويسترجع أيام الدنيا وهو أمام النار، فيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [٢] فالحياة هي الآخرة، وليس كما كان يحسبها أنها الدنيا، ثم يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليعمل صالحاً ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾»[٣].

يقول سيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهي أمنية لا تنال، فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع، وها أنتم أولاء في دار العمل، وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود، وستسألون عنها مع التبكيت و الترذيل ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾»[٤][٥]

---

(١) أخرجه الترمذي- وقال حسن صحيح غريب (٢٥٧٤) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٢/ ٥).

(٢) الفجر: ٢٤.

(٣) الزمر: ٥٨

(٤) الزمر: ٥٩

(٥) الظلال ٥/ ٣٠٥٩- دار الشروق.

❐ الندم على ما مضى من العمل :

وربما في هذا الموقف أو موقف آخر يتندم الظالم ويعض على يديه من شدة الندم عندما يرى ما كان يوعد به من عذاب، ويبدأ بالتمني أن لو كان جندياً من جنود الدعوة، وعبداً من عباد الرحمن، ويعترف بحسرة بسبب ضلاله. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[1]

يقول صاحب الضلال : «ويصمت كل شيء من حوله،



(١) الفرقان: ٢٧-٢٩

ويروح يمد في صوته المتحسر، ونبراته الأسيفة، والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولاً، ويزيد أثره عمقاً، حتى ليكاد القارئ للآيات والسامع يشاركان في الندم والأسف والأسى!

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها، إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين، وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية، فيجسمها تجسيماً.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ فسلكت طريقه، لم أفارقه، ولم أضل عنه. الرسول الذي كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه الله رسولاً!

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول، ويضل عن ذكر الله.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ لقد كان شيطاناً

يضل، أو كان عوناً للشيطان.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ يقوده إلى مواقف الخذلان، ويخذله عند الجد، وفي مواقف الهول والكرب[١].



(١) الظلال: ٥/ ٢٥٦٠.

تخاصمهم عند توزيع الكتب

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾[1]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته، وأن إلى العذاب مصيره، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد، وقفة المتحسر الكسير الكئيب.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ يقول صاحب الظلال: «وهي وقفه طويلة، وحسرة مديدة، ونغمة يائسة، والسياق يطيل عرض هذه الوقفه حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية، وذلك من

(١) الحاقة: ٢٥-٣٢

عجائب العرض في إطالة بعض الموقف، وتقصير بعضها، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس، وهنا يراد طبع موقف الحسرة، وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير، ومن ثم يطول ويطول، في تنغيم وتفصيل، ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف، ولم يؤت كتابه، ولم يدر ما حسابه، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئاً.

ثم يتحسر أن لاشيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع..والرنة الحزينة



الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف، في تحزن وتحسر .. هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاءاً عميقاً بليغاً .

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم، بجلاله وهوله وروعته : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ياللهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال الماثل !

﴿خُذُوهُ﴾ . .كلمة تصدر من العلي الأعلى . .فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل، ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب، كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة!

﴿فَغُلُّوهُ﴾ . .فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه!

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ . .ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه .

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل

والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها»[١].

﴿خُذُوهُ﴾ كلمة كان يقولها لدعاة الحق عندما كانوا يصدعون بدعوة الحق، كان يقول لزبانيته خذوهم إلى المشانق وإلى السجون والمعتقلات، وصبوا عليهم من ألوان العذاب، على أيدي خبراء التعذيب من الشرق والغرب، تقال له هذه الكلمة ذاتها يوم القيامة، فالعقاب من جنس العمل، وهذا ما استشعره سعيد بن جبير في جوابه للحجاج. «ما تقتلني من قتله إلا قتلك الله مثلها يوم القيامة».



(١) الظلال : ٦/ ٣٦٨٢ - دار الشروق بتصرف.

تخاصمهم أثناء ذهابهم إلى النار

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾[1].

❑ نداء المنافقين:

في ذلك اليوم يقف المنافقون والمنافقات في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف، ولكن أنى للمنافقين أن

(١) الحديد: ١٣-١٥

يقتبسوا من هذا النور، وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتاً يناديهم: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾. ويبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير، بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا، إلى ما كنتم تعملون، ارجعوا فالنور يلتمس من هناك، من العمل في الدنيا، ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور!.

❐ توسل المنافقين:

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والكفار، فهذا يوم الفصل بعد أن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾.

ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت، فهاهم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾؟.. فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا هنا في صعيد واحد: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ كان الأمر كذلك، ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، فصرفتموها عن

الهدى، فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة، ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة، ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ الباطلة في أن تنجوا بالتذبذب وإمساك العصا من طرفيها، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.. وانتهى الأمر، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم.

ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتقرير، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ أم لعلها كلمة الملأ الأعلى، أو نطق الله الكريم»[1].



(١) الظلال: ٦/ ٣٤٨٦- دار الشروق.

تخاصمهم عند خطبة إبليس فيهم

والعلم عند الله إن كان إبليس سيخطب هذه الخطبة قبل اقتحامهم النار أم بعد قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وبرزوا جميعاً لله عراة الأجسام، وعراة النفوس، فكل شيء عار واضح يراه الجميع، فلم يعد هناك سر يخفى، فقال الضعفاء الذين لا يملكون الأمر والنهي، والذين كانوا

(١) إبراهيم: ٢١-٢٢

يقادون من قبل المتكبرين، والذين كانوا يعبدون قادة الضلال، فيخافونهم أكثر من خوفهم لله، ويتبعونهم بكل ما يأمرون، وإن كان في تلك الأوامر معصية، فها هم يذكرون تلك الأيام، أيام الذل، أيام عبادة العبيد من دون الله، ويقولون لأولئك المستكبرين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فهل تستطيعون مقابل تلك الطاعة العمياء والاتباع الذليل، أن تبعدوا عذاب الله عنا، يقولونها بيأس وهم يعلمون، أن الأمر ليس كما كان في الدنيا، وأنه لا سلطة في ذلك اليوم إلا سلطة الله سبحانه وتعالى، ولكنهم يتمتمون بأي شيء ويبحثون عن أي شئ يمكن أن يكون سبباً في النجاة، فرد عليهم المستكبرون: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ فلا ينفع الصبر الذي كان ينفع في الدنيا، ولا ينفع معه الجزع أيضاً، فلا خلاص من العذاب ولا مفر، ولا ينفع كبير من الكبراء من أصحاب البرد الثمينة، أو المناصب العالية، أو العربات الفارهة ﴿مَا

﴿لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ يقولونها بحسرة وخيبة أملٍ .

ثم يقوم الشيطان فيهم خطيباً ليقررهم ويذكرهم بالحقائق التي لم يدركوها أو تعمدوا نسيانها، ليزيدهم بعد ذلك غماً إلى غمهم، وهو الذي كانوا يعلقون عليه شيئاً من الأمل، فها هو ينفض يده منهم، ويقول لهم بوضوح: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمنقذكم، أو نافعكم، ولا أنتم كذلك.



تخاصمهم قبيل الاقتحام

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ﴾ الى قوله ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ الأنعام: -

وعندما وصلت جموع الكفار إلى حافة جهنم، أصابهم انهيار شديد، وقاموا يتمنون أمنيات متلاشية، ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ .

يقول الحافظ ابن كثير: «يذكر الله تعالى حال الكفار إذ وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾[1]

ومن العجب أن يقولوا أثناء تمنيهم ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بينما هم كانوا يحاربون المؤمنين ويحاربون كلمة التوحيد، ويستهزؤون بمن يدعون إليها، فلماذا إذن يتمنون أن يكونوا من المؤمنين؟ ولماذا الآن ولم يكن ذلك في

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ١٢٨

الدنيا ؟! إنه النفاق الذي ما زال عالقاً فيهم حتى وهم أمام النار يشاهدونها، فهم يظنون أن نفوسهم تخفى على الله، وأنهم يستطيعون خداع الله، لذلك يستخدمون الكذب، وكل ما يملكون من قمة التعبير والإقناع لينجوا من هذا العذاب الحتمي.

وبدا لهم واضحاً كفرهم ونفاقهم الذي كانوا يخفون على المؤمنين: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾

قال ابن كثير: «فإنهم ما طلبوا العودة إلى الدنيا رغبة ومحبة في الايمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1]



(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ١٢٨

تخاصمهم عند السقوط

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

يقول ابن كثير: «﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، أي: أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عنق، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر»[2].

و قد جاء في الحديث الذي أخرجه المنذري قول النبي ﷺ: «**يَخرجُ عُنقٌ من النَّارِ يومَ القِيامةِ له عينانِ تُبصِرانِ، وأُذُنانِ تَسْمَعانِ، ولِسانٌ يَنطِقُ، يقولُ: إنِّي وُكِلْتُ بثلاثةٍ:**

(١) الشعراء: ٩١-١٠٢

(٢) «تفسير القرآن العظيم": ٣/ ٣٣٩

بِمن جعل مع اللهِ إلهًا آخرَ، وبكلِّ جَبَّارٍ عنِيدٍ، وبِالمُصوِّرِينَ»[١]

وقيل لهم: أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله، وتعتقدون فيهم الضر والنفع، هل يستطيعون نصركم الآن؟ بل هل يستطيعون نصر أنفسهم؟؟ ولم يمهلوا وقتاً للإجابة، إنما تخطفتهم الزبانية من نواصيهم وأرجلهم بعد أن أحكمت تقييدهم بالسلاسل والأغلال، ملبية نداء ربها وهو في غضب لم يغضب مثله من قبل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾[٢] والقتهم في النار، امتثالا لأمر الجليل قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾[٣] ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ قال ابن كثير: «ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم، الذين دعوهم إلى الشرك»[٤].

---

(١) رواه المنذري، وصححه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ٣٠٦١)

(٢) الحاقة: ٣٠

(٣) الحاقة: ٣١

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٣٤٠

يقول صاحب الظلال: «ثم نستمع إليهم في الجحيم... إنهم يقولون لآلهتهم من الأصنام: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ فنعبدكم عبادته، إما معه وإما دونه، الآن يقولونها بعد فوات الأوان، وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى، ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فلا آلهة تشفع، ولا صداقات تنفع»[1].

❐ عندما يستقرون في القاع:

وما زالت أعداد كبيرة تكب في النار، والنار تصيح: «هل من مزيد، هل من مزيد» فعندما يستقر القادة فيها، يكب



(١) «الظلال» ٥-٢٦٠٥

الله سبحانه وتعالى عليهم الأتباع، وتقول لهم الملائكة وهم يتساقطون: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾[١] فيرد القادة بأسى وحرقة وضجر من كل شيء يذكرهم بالماضي ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾[٢] ثم يجري هنا التخاصم بين الفريقين ابتداءً برد الأتباع على القادة، ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ الى قوله ﴿أَهْلِ النَّارِ﴾[٣].

الآن يتعجب القادة من عدم رؤيتهم لأولئك الذين كانوا يستهزؤون بهم ويعذبونهم ويتهمونهم أمام الشعوب بالجنون والتطرف والرجعية، يكتشف أولئك القادة أن أولئك الذين كانوا يعدونهم من الأشرار ليسوا معهم، وظنوا وخاب ظنهم أن ما اتهموهم به من الجرم في الدنيا يكون سبباً في دخولهم النار، ولا يعلمون أن من اتهموهم وخاصموهم من المؤمنين والصالحين كانوا بعبادتهم الحقة لله وبما عملوا من

(١) ص: ٥٩
(٢) ص: ٥٩
(٣) ص: ٦٠-٦٤

الصالحات قد نزلوا في قصورهم المبنية من لبنات الذهب والفضة وأنهار اللبن والخمر والعسل والماء تطرد من تحتها، هناك مع حورياتهم التي لو نظرت إحداهن إلى الأرض لغطت شعاع الشمس، ولو وقع خمارها على الأرض لعطر الدنيا. هم هناك يطؤون بأقدامهم الزعفران، وينظرون كل جمعة إلى الرحمن، هم هناك فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

❐ بداية التلاعن :

وبعد أن يستقرون في النار يبدأ التلاعن : ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا



هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1].

ونتخيلهم وهم عراة في النار تحفهم من كل جانب، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، فترتفع أصواتهم من شدة الألم، ويلعن بعضهم الآخر لأن كل أمة تشعر أن سبب إلقائها في النار الأمة التي سبقتها، حتى إذا استقر الجميع فيها، وشعر الأتباع بمرارة العذاب الشديد، وأحسوا بنتيجة اتباعهم لقادتهم الطغاة، طلبوا من الله عز وجل مضاعفة العذاب لقادتهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وحتى هذه الأمنية وهذا الانتقام من قادتهم لا يملكونه ولا يحقق لهم، فيأتي الرد عليهم ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

ولكن القادة لم يصمتوا حيال هذا الطلب، فيردون على

(١) الأعراف: ٣٨-٣٩

حجج وتبريرات أتباعهم ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [١] فأنتم ضللتم كما ضللنا نحن، فليس لكم ميزة تمتازون بها علينا ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [٢].



(١) الأعراف: ٣٩

(٢) الأعراف: ٣٩

تخاصمهم مع خزنة النار

ثم يصب الحميم على الرؤوس كما روى الترمذي عن الرسول ﷺ: «**إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسْلِتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ**»(١)

ويتحول ضرس الكافر كجبل أحد، وذلك ما روى مسلم في «صحيحه» : «**ضِرْسُ الكافِرِ -أو نابُ الكافِرِ- مِثلُ أُحُدٍ، وغِلَظُ جِلْدِه مَسيرة ثلاثٍ**»(٢).

وروى مسلم: «**ما بين مَنكِبَي الكافِرِ في النارِ مسيرَةُ ثلاثَةُ أيَّامٍ للرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ**»، لنتخيل كيف يضخم الله أجساد الكفار في النار، ليزدادوا عذاباً. وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله بجلود غيرها ليذوقوا العذاب، فيتمنوا الموت ليرتاحوا، فينادون مالكاً خازن النار: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

(١) رواه المنذري وحسنه الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ٣٦٧٩)
(٢) أخرجه مسلم : ٢٨٥١.

رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1].

يقول سيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق، من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة، ولا في طلب الغوث، فهم مبلسون يائسون، إنما يصيحون في طلب الهلاك، الهلاك السريع الذي يريح - وحسب المنايا أن يكن أمانيا - وإن هذا النداء ليلقى ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب، وأجساماً تجاوز الألم بها حد الطاقة، فانبعثت منها



(١) الزخرف: ٧٧-٧٨

تلك الصيحة المريرة ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [١] ويصب عليهم أنواع العذاب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، ويبكون ندماً وحسرة، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ: «**يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت**»[٢] ولكن لا ينفع البكاء شيئاً، ولا يغير من واقع العذاب شيئاً، ثم يتحاجون مرة ثانية، وتعلوا أصواتهم ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ

(١) الظلال: ٥/ ٣٢٠٢

(٢) ابن ماجه- وحسنه الألباني. ص. ج ص (٧٩٣٩)

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾[١].

يقول الإمام النسفي: «واذكر وقت تخاصمهم في النار ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ يعني الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتباعاً كخدم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزاء ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢].

يقول سيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً و إمعاتٍ! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار!».



(١) غافر: ٤٧-٥٠

(٢) «تفسير القرآن الجليل» ٤/ ٣٥٧

لقد منحهم الله الكرامة، وكرامة الإنسانية، وكرامة التبعة الفردية، وكرامة الاختيار والحرية، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية، لم يقولوا لهم: لا، بل لم يفكروا أن يقولوها، بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله، فهم في النار، ساقهم اليها قادتهم كما يسوقونهم في الحياة، سوق الشياه! ثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنهم يحمونهم من الفساد، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء! فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا، ويجيبونهم في ضيق وبرم وملالة، وفي إقرار بعد الاستكبار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ إنا كل ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً، إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء، فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعفاء سواء؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل، وقد قضى الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله، وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه، اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع، وفي ضراعة تسوي هؤلاء بهؤلاء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾[1]



(١) «الظلال» ٥/ ٣٠٨٤

قال الحافظ ابن كثير: «لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعوا لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم سواء دعوتم أم لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب»[1].

فبأي ألم يستقبلون هذه الإجابة من خزنة جهنم، إنهم كانوا إذا سألهم الفقير الحاجة طردوه ولم يستجيبوا لحاجته،

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ٨٣.

وكان الدعاة أصحاب الحق يسألونهم الإقلاع عن المعاصي ولزوم طريق الحق، فكانوا يستهزؤون بهم، ويسخرون منهم في منتدياتهم وإعلامهم، ها هم أولاء يسألون الخزنة فلا يستجيبون لهم، فجزاء إعراضهم عن الحق في الدنيا يجازيهم الله ويعرض عنهم في الآخرة في الاستجابة لطلبهم، حتى ولو للتخفيف وليس للخلاص من عذاب يوم واحد فقط.



الاعتراف الأخير

وهم منذ مبعثهم وهم يلهثون بعبارات الندم، وتفيض أعينهم بالدموع، وتقر ألسنتهم بالمعاصي، ولكن الاعتراف الأخير يكون عندما يلقون في النار، وتحترق تلك القلوب التي لم تستطع المواعظ ولا الزواجر إلانتها..

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[1].

قال ابن كثير: «أي يسبحون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يتمنون أن لو كانوا في الدنيا ممن أطاع الله، وأطاع الرسول»[2].

والآن هم اكتشفوا أن الطريق التي كانوا يسلكونها كانت طريقاً خاطئة بسبب أتباعهم لسادتهم وكبرائهم ممن سلك

(١)الأحزاب: ٦٦-٦٨

(٢) مختصر تفسير ابن كثير" ٣/ ١١٦

طريق الشيطان، والآن هم يتجرؤون على لعن سادتهم ومخاطبتهم بمثل هذه اللهجة الجريئة بعدما كانوا في الدنيا جبناء أذلاء صاغرين، عبيداً لسادتهم، فأنى للعبد أن ينكر أخطاء سيده، ولكن بعد فوات الأوان .

قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ (١)

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

هكذا يكون الاعتراف الأخير: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا

(١) المؤمنون: ١٠٣-١١١

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ قال ابن كثير: «أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها، ولم نرزقها»[١]

فيبقون هكذا في النار يعذبون، والعذاب يزيد كل يوم، فإما أن يخلدون فيها إذا كانوا كافرين، أو يخرجوا منها إذا كانوا مسلمين بعد أن يأخذوا جزاءهم بما اقترفت أيديهم، وقد يكون هذا المكث آلاف السنين، واليوم الواحد يعادل خمسون ألف سنة من أيامنا، فنسأل الله الرحمة وحسن الخاتمة.



(١) تفسير القرآن العظيم" :٣/ ٣٥٧

خاتمة

رأى الحسن البصري رجلاً يلعب بالحصاة ويدعو الله بقوله : «اللهم زوجني من الحور العين» فقال له الحسن : «تعبث بالحصى وتطلب الحور العين بئس الخاطب أنت».

ونقول للذين يستلذون بسماع وقراءة كلام أهل الجنة، ثم يتنهدون ويقولون : «اللهم اجعلنا من أهل الجنة» وهم على حالهم لا يريدون أن يغيروا ما بأنفسهم، نقول لهم : بئس الطلاب أنتم، فمن أراد الحصول على الجنة، لابد أن يشمر عن ساعد الجد، ويعمل متخطياً الصعاب والمكاره، وأن يعيش في خوف دائم، يصحبه رجاء فنحن بعد أن مررنا بآيات تخاصم أهل النار ورأينا جانباً من تعذيب العصاة في النار، يبقى الاتعاظ من أحوال أهلها، والتوبة السريعة قبل فوات الأوان، وهذا دأب أصحاب القلوب السليمة، أما القلوب التي غطاها الران وقست، فلا يزيدها ذكر هذا الأمر إلا طغياناً وتمادياً في المعاصي كما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [١] وعلامة الاتعاظ والخوف ترك المعاصي، كما قال الإمام ابن تيمية: «الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله»[٢] ولا يعبد الله سبحانه وتعالى بالخوف فقط، فإن ذلك يؤدي إلى اليأس والقنوط من رحمته، وكذلك لا يعبد سبحانه وتعالى بالرجاء فقط فإن ذلك يوصله إلى الإتكال والتكاسل، إنما يعبد بالخوف والرجاء معاً، كما أخبر سبحانه وتعال في كتابه الكريم: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٣] قال ابن كثير: «لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات» [٤]

نسأل الله أن نكون من عباده الذين يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن

(١) الإسراء: ٦٠
(٢) تهذيب مدارج السالكين" : ٢٧١
(٣) الإسراء: ٥٧
(٤) مختصر ابن كثير : ٢/ ٣٨٤

رَّبِّنَا يَوۡمٗا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ [1] فيجازينا الله يوم القيامة، ويقينا من عذابه في ذلك اليوم، و يرزقنا جنته. ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ [2].



(١) الإنسان: ١٠

(٢) الإنسان: ١٠-١٢

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
- مقدمة	٥
- **الفصل الأول: كلام أهل الجنة**	١١
- كلامهم للمجرمين عند قيام الساعة	١٣
- كلامهم عند الحساب	١٨
- نزول الشمس على الرؤوس	١٩
- المستظلون بظل العرش	٢٠
- بداية الحساب	٢٤
- كلامهم عند الغمس في الجنة	٣٠
- أنعم أهل الدنيا	٣٠
- أشد الناس بؤساً	٣٢
- كلامهم قبل كشف الساق	٣٥
- كلامهم عندما تزلف الجنة	٣٩
- كلامهم بعد جواز الصراط	٤٣
- تذكرهم لمخالفيهم	٤٥
- كلامهم مع المنافقين في طريقهم إلى الجنة	٤٨
- كلامهم بعد نزول المنازل	٤٩

- عندما يساقون إلى الجنة ٤٩
- أول الناس دخولاً ٥٠
- الازدحام على الأبواب ٥١
- ما يحدث لهم عند الدخول ٥٣
- ارتفاع الدرجات ٥٤
- بعدما ينزلوا منازلهم ٥٧
- كلامهم عندما يذبح الموت ٦٠
- كلامهم مع أهل النار ٧١
- الحوار الأول ٧٢
- الحوار الثاني ٧٤
- الحوار الثالث ٧٩
- كلامهم عن أصحابهم في الدنيا ٨٤
- كلامهم مع زوجاتهم في الجنة ٨٦
- رياح الشمال ٨٦
- جمال الحور ٨٧
- أغاني الحور ٨٩
- كلامهم عن أيام الدنيا ٩١
- ثناؤهم على الله ٩١

- تحسر أهل الجنة ٩٣
- تذكر ثمار الدنيا ٩٥
- تذكر دعاؤهم في الدنيا ٩٦
- كلام أدنى أهل الجنة منزلة ٩٩
- كلامهم قبل إحلال الرضوان عليهم ١٠٢
- كلامهم قبل رؤيته سبحانه وتعالى ١٠٤
- **الفصل الثاني: تخاصم أهل النار ١٠٧**
- تخاصم أهل النار ١٠٩
- تخاصمهم بعد النفخ في الصور ١١٠
- تخاصمهم عند الحشر ١١٣
- تخاصمهم مع جلودهم ١١٧
- تخاصمهم عند رؤية جهنم ١٢٣
- المستضعفون يتهمون المستكبرين ١٢٣
- المستكبرون يتخلون عن التبعة : ١٢٥
- الحوار البائس ١٢٦
- تخاصمهم عند مجيء النار ١٢٩
- تمنى الرجوع للعمل ١٢٩
- الندم على ما مضى من العمل : ١٣١

- تخاصمهم عند توزيع الكتب ١٣٤
- تخاصمهم أثناء ذهابهم إلى النار ١٣٨
- نداء المنافقين ١٣٨
- توسل المنافقين ١٣٩
- تخاصمهم عند خطبة إبليس فيهم ١٤١
- تخاصمهم قبيل الاقتحام ١٤٤
- تخاصمهم عند السقوط ١٤٦
- عندما يستقرون في القاع : ١٤٨
- بداية التلاعن ١٥٠
- تخاصمهم مع خزنة النار ١٥٣
- الاعتراف الأخير ١٦١
- خاتمة ١٦٤
- الفهرس ١٦٧

